

مكتبة
الأسرة
١٩٩٨

مهرجان القراءة للجميع

الأعمال
الإبداعية

الديساس

خيرى شلبى

مكتبتى

www.ahmedbn221.blogspot.com

Dr. Ahmed Mady

17

الفنية المصرية
العمامة للكتاب

Tuse 25/8/2009
Riyadh



ومازال نهر العطاء يتدفق، تتفجر منه ينابيع المعرفة والحكمة من خلال
إبداعات رواد النهضة الفكرية المصرية وتواصلهم جيلاً بعد جيل. ومازلنا
نتشبهت بنور المعرفة حقاً لكل إنسان ومازلت أحلم بكتاب لكل مواطن
ومكتبة في كل بيت.

شبَّت التجربة المصرية «القراءة للجميع» عن الطوق ودخلت «مكتبة
الأسرة» عامها الخامس يشع نورها ليضيء النفوس ويثري الوجدان بكتاب
في متناول الجميع ويشهد العالم للتجربة المصرية بالتألق والجدية
وتعتمدها هيئة اليونسكو تجربة رائدة تحتذى في كل العالم الثالث،
ومازلت أحلم بالمزيد من لآلئ الإبداع الفكري والأدبي والعلمي تترسخ في
وجدان أهلي وعشيرتي أبناء وطني مصر المحروسة، مصر الفن، مصر
التاريخ، مصر العلم والفكر والحضارة.

سوزان مبارك



مكتبة الأسرة
١٩٩٨
مهرجان القراءة للجميع

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

الدسار

(قصص)



خيرى شلبى

خيرى شلبى

مواليد ٣١ يناير عام ١٩٣٨ .. قرية شباس عمير
مركز قلين محافظة كفر الشيخ .

له ستون كتابا .. ما بين روايات وقصص قصيرة
ودراسات نقدية وتاريخية وتحقيقات أدبية
ووجوه فنية .

رئيس تحرير مجلة الشعر منذ عشر سنوات
وحتى الآن .

كاتب متفرغ ، يكتب بانتظام لمجلة الإذاعة
والتليفزيون وجريدة الأسبوع .. وجريدة
القدس العربية .

حصل على جائزة الدولة ، وسام العلوم والفنون
من الطبقة الأولى عام ١٩٨٠ .

من رواياته : الأوباش ، السنيورة ، الوند ،
فرعان من الصبار ، الشطار ، وكالة عطية ،
العرابى ، ثلاثية الأمالى ، موال البيات والنوم ،
لحس العتب ، بغلة العرش .

من مجموعاته القصصية : سارق الفرح ، صاحب
السعادة اللص ، المنحنى الخطر ، أسباب للكى
بالنار .

من كتبه فى الدراسات : محاكمة طه حسين ،
دراسات فى المسرح المصرى المعاصر لطائفا
اللطائف ، أبو حيان التوحيدي ، وغيرها ..



رسالة الحائط الرطيب

نحيف القوام مهزول البدن مرهق النفس على الدوام. يطل من عينيه شقاء ووجع مريرين، فيهما بريق استهوال كأنه الخط فجأة بين عصابة من اللصوص الخطرين فتجمدت في عينيه نظرة الاستهوال المبطن بدهشة مع حقد مع حسد مع ظل من البلاهة الماكرة، نظرة من يريد ولو لحسة من السريقة جزاء سكوته على ما رأى.

ذلك هو وجيه ابو وهدان، أصله من مدينة المحلة الكبرى، شغلته في الأصل حلاق، له محل في شارع السوق أهم شارع في المدينة. لكنه يتعشق تأليف الأغاني، من أجلها داوم على هجر الدكان ومدينة المحلة. بات كلما توفر لديه مبلغ ركب إلى القاهرة، فيتجه مباشرة إلى حديقة معهد الموسيقى في شارع الجلاء، يعرض على الصحبة أغنياته، يتصيد المطربين والملحنين ليستمعهم هذه التأليف، لكن بصنعة لطافة. حيلته في ذلك من أعجب ما يمكن..

فلقد هجر الدكان أي نعم، ولكن عدة الحلاقة دائماً معه. حقيبة منفاخ كانت أنيقة ذات يوم قبل أن يلقيها سوء حظها بين يديه يحشر عدة الحلاقة كلها بفوطتها في جيب منها، وفي جيب آخر دفاتر وأوراق مكتظة بالأغنيات، وفي جيب ثالث قميص وجورب وغيار داخلي. ومن طرائف هذه الحقيبة أنها حين تفتح

على جيب معين فإنها تبدو كما لو كانت مجرد هذا الجيب وحده فقط، أما هو نفسه فإنه يجتهد في أن يكون على الدوام نظيفاً إلى حد مقبول، فالبنطلون من صوف الفانلة هو هو لكنه دائماً مكوى، وكذلك القميص الأبيض ذو الكم المشمر الأساور عن ساعة «جوفيال» عتيقة في معصمه الأيمن تمشياً مع تقاليد الشواذ المخافين للتقاليد من أهل الفن والمجتمع.

موهوب الملامح، ما أن تقع عيناك على وجهه حتى ترثى له تشفق عليه وعلى حماسه. لا تلبث حتى تتعاطف معه، إذ هو على الأقل تعشق طريقاً جميلاً في حين يتعشق أمثاله المكاسب والشطارة.

بارع في التعرف على كبار الملحنين والمطربين، والتقاط أخبارهم من كل مصدر، وتسقط أنباء زيارتهم المرتقبة للمكان الفلانى : سيعمل بروقة في نادى نقابة الموسيقيين يوم كذا الساعة كذا، سيكون فى المعهد بعد ساعتين من أجل كذا، سيكون عند الترزى يوم كذا... هكذا يمكن أن يجيبك إذا سألته عن أخبار أى مطرب أو ملحن.

يرى أن حديقة معهد الموسيقى هى أنسب مكان للتلاقى، فهى المكان الوحيد الذى يملك مبرراً لاقتحامه فى أى لحظة والانتظار فى حديقته الواسعة. إنه قد يجد الشخص المرجو فجأة جالساً بجواره أو قبالة يشرب فنجان قهوة. حينئذ يبدو

على سحنة وجيه أبو وهدان هدوء وثقة، عدم رغبة في المطاردة، فيأمن له النجم المرجو يوقن أنه جالس مع رجل وقور متزن لن يطلب منه خدمة لن يلح عليه في شيء أو يزعجه بثرثرة فارغة. لا يجد النجم غضاضة في أن يبادل الحديث والتعليقات حول ظواهر عامة، وإذا يتأكد أن هذا الشخص غير متكالب عليه غير مراقب له فإنه يصير على سجيته يلتزم جانب اللطف مع جليسه، فالنجم دائماً أبداً لا يهتم إلا بمن يظهر له عدم الإكتراث به.

لكن، يؤتى الحذر من مكمته كما يقول المثل. إذ أن وجيه أبو وهدان يكون قد دخل بالفعل من باب آخر لا يتوقعه أحد رغم أنه بات ظاهرة متكررة بالنسبة لمعظم نجوم الموسيقى والغناء ممن يرتادون حديقة معهد الموسيقى، يتسلل وجيه أبو وهدان بالحديث حول تسريحة شعر النجم، وكيف أنها غير متسقة مع شكل وجهه الجميل، وأن الفورمة المناسبة له هي هذه، ويريه صورة للتسريحة في كتالوج مطبوع. ومهما كانت رغبة النجم في تقفيل الحديث قوية باترة فإنه سيفاجأ بعد دقائق أنه قد صار يتفرج على الكتالوج في شغف. وبعد دقائق أخرى سيفاجأ بأنه قد جلس في الوضع المناسب والتفت فوطة الحلاقة حول رقبته وصار تحت الماكينة والمقص والموس بالفعل.

تقع الضحية في المصيدة فليس أمامها ثمة من مفر، فيشرع وجيه أبو وهدان في تسوية ضحيته على نار هادئة، يلقي على

سمعه كل ما تحتويه جعبته من أغنيات على درجة كبيرة من
الطرافة. فى تسعين فى المائة من هذه الحالات لن تشعر
الضحية بالضجر إلا إذا كانت مرتبطة بموعد عاجل. فيما عدا
ذلك فإن الرجل سيجد أن تعديلا جوهريا قد حدث بالفعل فى
تسريحة شعره بلمسات بسيطة سريعة مدربة. سيجد كذلك أن
الكلمات التى يستمع إليها لا تخلو من أفكار وجيهة طازجة فى
كل الأحوال، وبعض العمق أحيانا، ودربة على النظم الموزون،
وبراعة فى استجلاب القوافى الغريبة التى لا تخطر على البال
لأول وهلة، والتى لو سمعتها وحدها لا ستنكفت ورودها فى
أغنية. ثم إن أغنياته تختلف عن أغنيات معظم الهواة المترددين
على حديقة المعهد، إذ أنها تدور حول فكرة أو لمحة أو موضوع
يكون فيه منفذ لورود الحب والكلام عنه بلهجة فيها جرأة
وواقعية، فى معالجة فنية يغلب عليها السذاجة، لكنها السذاجة
اللطيفة المغربية بترديد الكلام.

لهذا كان من السهل أن تصل كلماته فى بحر سنوات قليلة
جدا إلى حناجر بعض مطربى الدرجة الأولى. إشتهرت له أغنية
اشتغلت كثيرا فى حفلات أضواء المدينة بصوت مطرب شعبى
مرموق، كانت الجماهير تطلبها منه - وبالحاح - فى كل حفل.

بعدها أصبح يزور حديقة المعهد كواحد من المشهورين
المرموقين. تنازل عن عدة الحلاقة مؤقتا، لم يتركها، إنما أغلق

الجيب الذى يحتويها فلم يعد يفتحه قط إلا فى حالات نادرة حيث يقع أحد النجوم فى زنقة موعده أو تصوير فيطلق إليه رفع لحيته بسرعة. لكن مظهرهبقى كما هو، لم يطرأ على حالته الإجتماعية أدنى تغيير وإن قويت عينه وبات إذا جلس يضع ساقاً على ساق.

لم يكن ذلك عن غطرسة أصيلة فيه، إنما هو مدفوع إلى ذلك دفعاً، للدفاع عن نفسه ضد نبرة من الإستهتار الخفى باتت تجابهه من رهط ممن أطلقوا على أنفسهم شعراء العامية، فارتبطت أشعارهم بشعارات الاشتراكية والنبرات الخطابية الزاعقة، شاعت فيها مفردات كالخطاوى والغناوى والأسمرانى والأخضرانى وما إلى ذلك. أحياناً كانوا يجاهرونه برأيهم فى أن «المرحلة» لا يجب أن تتسع لأمثاله من الذين يكتبون شعبيات لا فكر فيها ولا ثقافة وراءها فهى إذن ضد الفلسفة الاشتراكية التى تنتهجها البلاد فضلاً عن أنها مدمرة للذوق العام. فيطاولهم برأيه فى أن الاشتراكية يعنى أن تأخذ كلماته هذه وأمثالها طريقها إلى الأذان وهى أخذته بالفعل شاعوا ذلك أو أبوه. وقد تلقى منهم صنوف الكبر والاستعلاء والعدوانية حتى لكأنه حشرة يتأففون من منظرها يعملون على سحقها. نجحوا فى الاستيلاء على الفرص الثمينة لأنهم كانوا بالفعل وقوداً للمرحلة فأفلحوا فى أن يكونوا تمثيلاً لها بأى شكل وعلى كل لون. المرحلة كانت

فى حاجة لأبواق، والأبواق فى احتياج للشهرة والمال والنجومية، فالصفقة إذن متوازنة. بشكل أو بآخر سيطروا على مشاهير الملحنين الذين لهم نفوذ كبير على الأصوات والميكروفونات، والذين هم بدورهم جزء لا يتجزأ من الصفقة. امتلاً الأثير بكلمات ذات نزعة شعاعرية، أو عاطفية مجنحة، أو فولكلورية بصياغة جديدة مسبوكة مائعة. أما هو - وجيه ابو وهدان - فقد كان أقرب إلى الفولكلور من حبل الوريد، هو الفولكلور بكل عبله الجميل الصادق: الخشونة والتلقائية المفرطة فى العرى من أى تزويق أو تجميل أو إسقاط وإن كانت أعماله مع ذلك لها أبعادها العميقة ولكن فى حدودها الإطارى ككيان مستقل قائم بذاته.

كان يضيق بزيف القاهرة وعدوانيتها الشديدة، فيهرب إلى المحلة الكبرى يلتمس فيها أمنا ورزقا من صنعتة. فما يلبث حتى يضيق بالمحلة الكبرى وعالمها المحدود، يشعر بعمق الاغتراب، فيشد الرحال إلى القاهرة. كان بالفعل منبت الجذور حقاً، يلفظه مجتمع المحلة العملى الصرف، المنغمس فى ماكينة العمل بلهات لا ينقطع، ويستعلى عليه مجتمع القاهرة الزائف بطواويسه المدربين على شغل الحواة ولاعبى الثلاث ورقات ودهن الوجوه بالمساحيق والبويات، حيث يعيش كل واحد بشخصيتين وربما أكثر.

كثيراً ما اختفى تماماً، لأوقات طويلة لا يظهر فى أى مكان.

ولأنه لم يعدم المحبين والمتطفين فإن الشعور بغيابه يكون دائماً قوياً، لدى الجميع في غالب الأحيان. فمستطفوه يشغلهم الاطمئنان على أحواله، ورافضوه يشغلهم الاطمئنان على اختفائه النهائي كأنه العقبة الكأداء في طريقهم.

هو أيضاً من الذكاء واللماحة على قدر كبير، يعرف جيداً من يستطفه فيسقط عليه فجأة ليملك معه وقتاً طويلاً يعطيه تقريراً مفصلاً - فهو مغرم بالتقارير المفصلة - عن أخباره وأحواله، ويعرف كذلك من يرفضه فيمر عليه مرور الكرام لا شيء إلا ليؤكد له بإشعاره أنه موجود على قلبه لم يمت بعد ولن يموت بعد ولن يموت حتى وإن لفظ أنفاسه، هكذا كان يقول لرافضيه، ويضيف قائلاً إنهم مؤقتون لأنهم أبناء مرحلة أما هو فباق لأنه ابن الذوق الشعبي الأصيل. ولربما يتذكره أحدهم فصيح فجأة: «هو الولد وجيه أبو وهدان مش باين ليه بقى له مده!»، فإذا به يكتشف بعد برهة قصيرة أن وجيها يجلس خلفه مع مجموعة أخرى أو ربما وحده، لقد كان في الواقع لا يخلو من إشعاع وشفافية كبيرين.

وبالنسبة لى شخصياً كنت أحبه، وأفتقده، وأطرب لكلماته، أنجذب لأفكاره الجنونية المحطمة لكل الأعراف والتقاليد الكتابية، تسخر منها، تمسخها، تحاول إقامة بنيان جديد مختلف، يستنكره الذوق المستقر لكنه بعد التفكير فيه يكتشف

أن له منطقاً الخاص الذى لا يخلو من وجاهة فنية. فإذا كانت الأغنيات الدارجة تجعل من القلب بيتاً يسكنه الحبيب، فما المانع أن يجعله هو شوارع وحارات يسكنها الحيارى فى دنيا الحب والغرام.. إلخ.. إلخ.

كثيراً ما تذكرته خلال الغياب فإذا هو يطب على فجأة فى مكتبى فى «الجرنان» كأنه سقط من خاطرى مجسداً. وأحياناً أخرى يختفى حتى من الذاكرة فلا يطفو عليها إلا عندما أستمع لأغنيته الشهيرة فى الراديو فى لحظة عابرة.

ثم مضت سنوات طويلة لم أره وإن تذكرته كثيراً، فاشتقت إليه بالفعل. سألت عنه فى جميع مظانه فلم أظفر بطائل، حتى يؤت من ملاقاته. إلى أن وجدتني ذات يوم فى المحلة الكبرى أجمع مادة موضوع أكتبه للجريدة عن لفيف من أدباء المحلة الشبان من أبناء المجتمع العمالي الصرف.

لم أجد عناءً فى الوصول إلى صالونه الشهير فى شارع السوق الحافل ليل نهار بحركة لا تنفد ولا تهمد. يقع الصالون بين محلين أحدهما يقال والأخر معرض لأحذية مغلق بباب زجاجى. تحت الرصيف تمتد على الجانبين عربات الخضر والطعمية والفول وأدوات التنظيف والأدوات المنزلية. كائى صالون حلاقة عتيق فى أى مدينة صغيرة كان هناك ستارة من الخرز فى حبال طويلة تتخبط فى بعضها من شدة اهتزاز.

الأرض تحت عجلات السيارات وأقدام الوافدين والراجلين. منظر الصالون يبدو أنه مدهون حديثاً باللون السماوى الفاتح فى الداخل، وبدرجاته الغامقة على الواجهة. ثمة لافتة كبيرة على الباب: [صالون الحرية]. نظرت فى الداخل، يوجد ثلاث كراسى ثمينة متجاورة تلمع بمساند شامخة ومقاعد وثيرة. خلفها - لصق الحائط - صف من الكراسى الجلدية المريحة. الحوائط كلها مكسوة بالمرايا حتى ما فوق القمة. كراسى الحلاقة وكراسى الانتظار كلها مشغولة.

دفعت رأسى بين حبال الخرز. قلت: «السلام عليكم.. نعيماً مقدماً». ردوا جميعاً: «أنعم الله عليك». قلت: «هذا فيما أظن صالون وجيه ابو وهدان!». مرت لحظة صمت مشوب بالترقب الغامض. كان من الواضح أن الأسطى الواقف على الكرسى المحاذى للباب هو الأسطى ها هنا. تقهقر عن قفا الزبون، حاذانى قائلاً: «حضرتك تطلبه فى شىء؟!». قلت فى شىء من المرح تاركاً حبال الخرز تنثال على كتفى: «إنه صديقى وأنا صحفى من القاهرة جئت فى مهمة فأحببت أن أراه!». إختفى التوجس من ملامحه، صاح: «أهلاً وسهلاً! هو سيكون هنا بين السادسة والسابعة! إنه الان فى السوق! له زبائن خصوصيين يمر عليهم فى محلاتهم وبيوتهم!»، ثم استأنف الحلاقة للزبون بالمقص والمشط. شكرته وخرجت. ملت على البقال أشتري علبة

سجائر. كان وحده مرتكنا بمرفقيه على البنك. رأيت فيه شاباً بشوشاً طفولى الوجه إلى حد كبير، ولولا عينان بارزتان فى وجهه الأبيض المحمر، مليئتان بالخبرة والعذاب والتجربة لقلت إنه طفل متضخم الجسد.. فلما اعتدل واستدار ليأتى بعلبة السجائر رأيت جسده القصير مثل رأس الفجلة، رفيع من أعلى تخين من أسفل. وإذا انحنى على درج الفكة ليجمع لى بقية الجنيه وجدتني أقول له: «أستطيع أن أرى وجيه ابوهدهان أو أترك له رسالة؟». فرفع وجهه عن درج الفكة ناظرا فى وجهى باهتمام وتدفق شديدين، مد ذراعه السمينه إلى جواره قرفعها بكرسى دائرى صغير بدون مسند، قدمه لى: «تفضل اقعد!». فتفاءلت خيراً وجلست بجوار البنك - سلمنى بقية الجنيه، ثم فتح الثلاجة الثلجية الحمراء وأخرج زجاجة اسباتس خضراء مغبشة، فتحها، قدمها لى: أهلاً وسهلاً.

قدمت له نفسى، فعاود الترحيب بى، قال إنه خدامى فتحى الملاء، من هواة الشعر والزجل، جاءت الهواية من الورق الذى كان يشتريه بالطرناده ليبيع فيه، فلما جذبه الورق تصفحه، فلما تصفحه عرف فيه الشعر، فأحبه، جاء عليه وقت لم يكن يتكلم فيه مع الزبائن إلا بالشعر، هم يطلبون بالنثر وهو يرد عليهم بالشعر، وكان سريع البديهة، لكنه اضطر إلى إبطال هذه العادة بعد أن اتضح له أن معظم الزبائن يتضايقون من قفشات

الشعرية إذ يفهمونها خطأ. قلت له:

- «هل أنت واثق أن وجيه أبو وهدان سوف يأتي؟!»..
قال في براءة:

- «على كل حال هو ابن حلال مصفى! إنه غريب الأطوار!
أحياناً يكون على موعد معي ويتصادف أن يجيء قبله من يسأل
عنه قاصداً به أذى! فإذا به بقدره قادر لا يحضر في مواعده بل
ربما يتأخر أياماً! وأحياناً أخرى يطب فجأة بدون موعد ليجد في
انتظاره من يبحث عنه لمصلحة!! إنه جدع غريب ويأس لكنه
طيب القلب فنان!»..

مدفوعاً بنوع من الفضول قلت:

- «الصالون المجاور لك! صالونه فعلاً؟!»..
تردد برهة ثم قال:

- «قلت لحضرتك إنه بائس! الأيام لطشت معه كل التلطيش!
كله من قر الناس عليه من يوم ما اشتهر كمؤلف غنائى! بدأ
يهمل الصالون ظل طول الليل يدخن الحشيش يسرح في دنيا
الخيال يصطاد الأفكار التي لا بد أن تكون كما يقول حديثه غير
مسبقة! زوجه المسكينة صبرت عليه كثيراً! الأهل والجيران
اعتقدوا أنها أصبحت زوجة النجم المشهور الذي لا يكف
الراديو عن إذاعه اسمه فأى عزّ ونغمة! في حين أن المسكينة لا
تجد قوت يومها إلا بصعوبة!! المهم! قام الخلاف بينهما!! هي

مهما كان الأمر غلطانة!! كان يجب أن تصبر قليلاً حتى يستقر
فى مستقبله وكانت ستأكل الشهد! إن طريق الفن طويل يا
استاذ وأنا أعرف! الشاهد! أخذت أولادها وتركته إلى بيت
أبيها! ركبت رأسها! هو الآخر ركب رأسه أكثر وأكثر!! قام
بتأجير الصالون للصناعى الواقف بجوار الباب! صاحبنا عمل
اصلاحات وجدد العفش واستوطن فى المحل! عاد وجيه يلف
بالعدة مثلما كان يفعل أبوه قبل أن يشتري هذا المحل منذ
خمسین عاماً! اليوم هو لا يستطيع إخلاء هذا المحل! إذ هو ولد
لبط وخربوش! وطريق الفن حتى الآن غير مضمون لوجيه ابو
وهدان! يعنى لا طال عنب الشام ولا بلح اليمن! إنه بائس والله
يا أستاذ ويستحق عون الصحافة!!...»

كتمت ضحكتى، صرت أتحين الفرصة لإنهاء الكلام
والانصراف، حيث صار من الواضح لى الآن أن وجيه ابو
وهدان ليس فى حالة تليق باستضافة أحد. نظرت فى ساعتى:
- «على كل حال إذا...»

فإذا بالبقال يهتف فى فرحة طاغية:

- «وصل! كلا كما ابن حلال! تعال ياعم!»

استدردت ناظراً إلى الباب، كان وجيه ابو وهدان مقبلاً فى
خطو بطىء، نازل الجسد، ليس فيه سوى عينين تبرقان فى
ترقب وتجد شديدتين، يحمل حقيبة العدة، نفس الحقيبة التى

يجيء بها إلى القاهرة. وضعها على البنك وعانقني، أمعن في
الترحيب بي، غمرت له بعيني غمزة يفهمها، صاح:
- « ماله! عن إذنك يا فتحي! يلاً بينا! »

- «نهاركم ابيض!» هكذا قال فتحي البقال..

عبرنا الشارع في ترق، ومنه إلى شارع جانبي أقل زحاماً،
ومنه إلى الخلاء، فالمزارع الشاسعة. هناك في سفح طريق
زراعي هبطنا إلى عشة صغيرة كالخص مبنية بالبوص
والحصائر، جلسنا على دكة خشبية. كان في استقبالنا رجل
ممصوص الدم شاحب الوجه منتفخ العينين. جهز لنا الشاي
الأسود الثقيل، وحجارة التبغ المعسل، ألقى أمامنا بالجوزة
وراح يسقينا أنفاس الحشيش في تمهل وهدوء أعصاب. قرص
الشمس كان في مواجهتنا قد صار كرة من اللهب الأحمر يتناثر
منه فتات على حجارة التبغ تلمع تطقطع تحت أنفاسنا. احلوت
المسائل كلها. أسمعني وجيه حوالى عشرين قصيدة غنائية في
خيوط واحد، في إلقاء كالتبتل والتهجد. أكبرته، إذ لاحظت أنه
لأول مرة يلقي شعراً لغيره من الشعراء كلها تمجيد في الثورة
الاشتراكية، وتجسيد للحلم الشعبي الإنساني في غد مزهر،
كلماتها مليئة بالمداخن والمآذن والمشربيات والحقول الخضراء.
من فرط استمتاعي وشغفي أهز رأسي طرباً: الله الله الله! يا
سلام!.. ذلك أنه قد وقر في ذهني لحظتها أن وجيه ابو وهدان

قد اتسع مخه وصدره وتذوقه فأصبح يُلقى شعراً لغيره
يستحسنه، واندَهشت كيف أتيتَه هذه القصائد الجديدة الطازجة
التي لم أقرأها من قبل. قلت مبدئياً إعجابي:

- «ظاهرة طيبة أن تحفظ شعراً لغيرك وتردده!».

لمع في عينيه احتجاج كبير:

- «غيري مين يا عم؟! هذه كلماتي أنا! شعري أنا!!».

قلت في غير تصديق:

- «هذا اللون جديد عليك!!».

قال في وعى حسدته عليه:

- «المهم أن يكون لونا أصيلاً وليس طلاءً متقناً!!» تفكرت

لبرهة طويلة. استعدته بعض مقاطع، تمعننتها جيداً، وجدت
اختلافاً كبيراً بالفعل بينه وبين شعراء العامية الذين حظوا
بشهرة عريضة في القاهرة، في الأسلوب، المفردات، زاوية
الرؤية، الأشكال الموسيقية. هنا مفردات المدينة الإقليمية،
العمالية الفلاحية معاً. هنا خيال ساذج رائع السذاجة، غفل من
الحشو الثقافي التقليدي، وبالأخص الثقافة الاشتراكية كما أن
الكلمات تخلو تماماً من الشعارات المصكوكة التي شاعت في
منتصف عقد الستينات الذي يُقترن في أذهاننا بالهزيمة.

رحت أحرق في عينيه كأنني أحاول التعرف عليه لأول مرة:

- «أنت إذن مؤلف هذه الأشعار! الغريب أن أغنياتك السابقة

كانت خفيفة جداً! وجانب الطرافة فيها هو الأقوى! فما سر هذا التحول المفاجئ؟!».

ضحك ضحكة مكدودة مرهقة، بانث لها سن ذهبية كامنة فى جانب من الفك السفلى الأيمن. قال بصوت متهدج:
- «أنا فى الأصل هكذا!! هذه هى أغنياتى الأصلية!! كتبتها قبل الأغنيات الخفيفة التى أذيعت واشتهرت!!».
هتفت مقاطعاً:

- «ولماذا لم تقدمها هى يا مجنون؟! لو قدمتها لكان لك الآن شأنًا آخر! كانت كبرتك مليون مرة!!»
فإذا به يكور شفتيه، ثم يطلق ضراطاً بذيئاً، تعقبه شجرة أشد بذاءة، ثم استدرك فى جدية أسيفة مريرة:
- «هذه الأغنيات كلها رفضتها لجنة النصوص فى الإذاعة بحجة أنها سوقية!! وكلما أسمعها لواحد من المطربين أبدى إعجابه وقال: أنا عايز حازه خفيفة تعلق مع الناس!..»
جمدتنى الدهشة، لأن الكلمات التى استمعت إليها لا يمكن رفضها بأى حال من الأحوال. وإذا به يستطرد:

- «كان فى استطاعتي أن أصر على تقديمها بإلحاح لكن ظروف النكسة وقفت ضدها وضد كل شىء جفيل! الناس شبعت من هذا الكلام ولم تعد تصدقه! الناس الآن فى حاجة إلى من يداوى جراحهم! بنكته بقفشة بصورة هزلية! الفن الزائف

الهيّيف ضلل الناس ونفخ رجال الثورة صنع منهم أباطرة يتحكم كل واحد فى مكان كالأبعاديات فضاعفت البلاد بين الرؤساء كذلك انطمست وطنية الرئيس عبد الناصر تحت أقدام الرئاسات الزائفة! فلما انكشف المستور إذا بكل الأشياء شائهة! الذين غنوا للثورة حتى وهي تضربنا بالأحذية الثقيلة لكي يحققوا الشهرة والمال والجاه خنقوا صدرى! صرت أكتب كلمات هزلية أقصد بها الهزء بكل شىء فى الدنيا حتى بالشعر نفسه! صرت أكتب أشياء أهدر بها قيمة الشعر عامداً متعمداً!! أهينه! أزرى بكل أهدافه الإنسانية النبيلة!! كنت أتوقع أن يضربنى كل مستمع بالحذاء لكنى فوجئت بأن الجميع معجب بما أكتب إلى حد الجنون!! الناس أصبحوا يعشقون الهزل بصورة مخيفة!!.. لاحظت أنه ممرور حتى مما يقول. سألته عن حياته الزوجية فقال إنها فشلت هي الأخرى كما فشلت الثورة فى تحرير البلاد. ثم زفر، وأشعل سيجارة، أسند رأسه المكدود على كفه وجعل يدخل بشراهة فائقة. أخيراً رفع وجهه بعينين حمراوتين كالدم، طلب عشرة حجارة على سبيل الختام. ثم ابتهج فجأة وهتف:

- « على فكرة! جئت فى وقتك! كنت أنوى أن أمر عليك وعلى بعض الأصدقاء فى الصحف لأكلمكم فى موضوع شديد الخطورة!!»..

- «لعله خير هذه المرة!!»..

-
- «هو موضوع أحب أن أنوه عنه فى الصحف!»..
- «ما هو يا ترى؟!»..
- «لقد بدأت السماء تراسلنى!!»..
- «نعم؟!»..
- «أقول لقد بدأت السماء تراسلنى!!»..
- «كيف بحق الله؟! ليتنى أستطيع أن أعرف!»..
- اشتدت حماسه. لمع فى عينيه بريق شديد النفاذ:
- «سأريك كل الوثائق! ستراها رؤية العين! وبما أنك صديق قديم وعزيز فإننى سأكشف لك السر الذى لا يصح أن أكشفه لأحد! إن الأسرار فى هذا الحياة لا يجب أن تقال لكل من هب ودب وإلا كانت السماء قد راسلت كل الناس!! وبما أن السماء قد اختارتنى أنا بالذات لتبلغنى بالرسالة فإننى سأختار بعض الصفوة لأبلغهم مضمون ما وصلنى فلربما تعاونوا جميعاً فى حل لغز الحياة وفرض مغاليقها!!»..
- «من فضلك! أريد أن أعرف كيف تمت هذه المراسلة؟! وهل تقوم أنت بالرد على كل رسالة أم تكتفى بالتلقى فحسب؟!»..
- «إنها لا تنتظر منى رداً! إنها تنتظر منى أن أفهم فحسب: أفهم واستفيد بما فهمت!!»
- «أقول كيف؟!»..
-

- «سترى كل شىء بعينيك! سأجعلك تحاول القراءة بنفسك! لقد كنت على وشك الانتحار قبل أن توافيني هذه الرسالة فعلمت أنى على شىء كبير من الأهمية وأنتى ربما ألعب دوراً فى حياة الناس على نطاق واسع أوسع من نطاق الشعر والأغاني والإذاعة! كل ما فى الأمر أنتى أريد أن تساعدنى أنت وكل من يستطيع! لا أقصد التنويه فى الصحف فحسب! بل أن تعاونى أنت مثلاً فى قراءة مضمون هذه الرسالة وتساعدنى على تفسير بعض غموضها!! وعلى كل حال فإننى ماض فى قراءتها وفك رموزها يوماً بعد يوم! وحين أنتهى منها سأضع لها صيغة نهائية يمكن لأى واحد أن يقرأها ويفهمها!!»..

- «هل هى رسالة خاصة بالدين مثلاً؟ أو بالدنيا؟!»..

- «بالأثنين معاً! هناك نبوءة بتحول جذرى فى حياتنا! إذا انتبهنا إليها من الآن يكون من حسن حظنا قبل أن تضيع منا الفرصة فى تدارك الأمور!!»..

وشد النفس من الجوزة بشراة تاركاً سحب الدخان تتدافع من منخريه فى غزارة.

صرت أنا فى حالة هى مزيج من الإثارة والخوف الغامض القابض للقلب. رحت أفكر فى طريقة أنسحب بها إلى موقف السيارات. إلا أنه نهض، فنهضت. صار يعبث فى جيوبه بحثاً عن نقود، فسارعت إلى حافظتى وحاسبت الرجل صاحب

المطرح، ومضيت بحذاء وجيه ابو وهدان عائدين إلى المدينة
التي بدت رغم أضوائها كتلة من الغموض الباعث على القلق.
بعد مسيرة طويلة صرنا فى شارع السوق. كانت الحركة قد
هدأت فيه بشكل ملحوظ. أنوار خافتة تنبعث من لمبات داخل
فوانيسه قديمة الطراز معلقة فى عواميد طويلة. الأرض زلقة
موحلة من أثر باعة الخضراوات وعربات الرش والقمامة.
السيارات الملاكى والأجرة تمر مسرعة فتلقى علينا بطين
الأرض. قعقة العربات الكارو تبدد سكون الشارع.
حودنا إلى حارة جانبية. مضينا فيها مسافة طويلة فى خط
مستقيم، ثم التوينا معها لخطوات طويلة، ثم ما لبثنا حتى دخلنا
حارة متفرعة منها، وسط بيوت كالحة مسودة بالغبار والدخان،
ما بين أربع وخمس وست طوابق على الأكثر. بعض الشقق فى
الأدوار العليا مدهونة حديثاً باللون الأزرق والأخضر والوردي
الساذج، كل البلكونات تتدلى منها حبال الغسيل المتخمة
بأشباح مصلوبة. بعض البلكونات مقفلة بالأبلكاش والسلك
الشبكة كحظائر للدجاج والأرانب. رائحة التقلية والقمامة
وصابون الغسيل والرماد تتصاعد متمازجة فى رائحة واحدة
نفاذة تبعث الأنس فى الأعطاف.

أخيراً توقفنا عند بيت لا بأس به، من خمس طوابق على
الطراز الفرنسى القديم، عمره لا يقل عن نيف ومائة عام، له

باكيات بارزة وشرفات وشبابيك طويلة القامة متقنة الصنع. باب مفتوح ودرفتاه غائصتان في الأرض بين البلاط المتآكل المتفرز. بعد العتبة بخطوطين فتحة بالوعة تشير إلى أن البيت كله يصرف فضلاته في «طرنش» واحد يتم كسحه من هذه الفتحة.

باب الشقة مجاور لباب الشارع تماماً، لها شباك مطل على الشارع لصق فتحة باب الشارع. مدّ وجهه وهدان يده بالمفتاح، فتح الباب. سرب يده من وراء الدرفة ضاغطا على زر النور، فانبعث الضوء في مواجهتنا. تقدمنى قائلاً: ادخل. أغلق الباب ورأى بالترباس الداخلى.

كنا في صالة مربعة تخلو تماماً من أى أثاث، بلاطها لامع ليس فوقه سوى الظلال. الحوائط تستحم في الرطوبة والملح اللزج يتخثر ويساح في خطوط عشوائية قبيحة الشكل مفرعة، ثمة خرائط وجبال وأحراش ومستنقعات رسمتها الرطوبة على الحوائط وفي السقف يتساقط الجير عن المحارة.

وقفت مذهولاً وقد بدأ الشك يساورنى في كل شىء أما هو فقد وقف أمامى واضعاً يديه في خاصرته، ناظراً نحوى ونحو الحوائط في زهو شديد، كأن لسان حاله يقول: أرايت بشائر صدق قولى؟.. فلما رآنى غير مستوعب للموقف برمته رفع حاجبيه قائلاً: تشرب شاي؟ ثم مضى بالفعل نحو ما توقعت أن

يكون مطبخاً. فمضيت وراءه، فإذا بنا بالفعل فى مطبخ، لكنه مجرد حوائط وحوض غسيل ورخامة مستطيلة، وليس ثمة من موقد أو طبق أو حلة أو كوب أو كنكة أو حتى كوز من الصفيح وكانت الحوائط تزدان بنفس الخرائط، فتشككت فى أننى سمعته يقول: تشرب شاي. لم أشأ أن أسأله، استدرت خارجاً من المطبخ، رأيت بحذائه دورة مياه تفح من جوفها ريح كريهة، شددت بابها أغلقته. أمامى الآن حجرتان مفتوحتان، دخلت الأولى فلم أجد بها أى شئ على الإطلاق، اللهم إلا ما رسمته الرطوبة على الحوائط من غابات وخرائب وأدغال. اندهشت كيف ينام فيها؟ وعلى أى شئ ينام؟ دخلت الحجرة الثانية فإذا الفراغ يملأ كل بقعة فيها. رأيت أن من العبث أن أوجه إليه أى استفسار. إلا أنه كرر على مسمعى: تشرب شاي؟! وجدتنى أرد بعصبية شديدة: افرض أننى طلبت فأين هو الشاي؟.. قال: حالاً، ثم تركنى ففتح باب الشقة بسرعة ووقف فى وسط مدخل البيت صائحاً فى اتجاه سلم سابح فى بحر من الظلام كدنيا صوراً أسود: يا مرمز! مرمز!! اعملى لنا كبايتين شاي لو سمحتى!.. فلم أسمع أى رد عليه، إلا أنه عاد فأغلق الباب بالترياس. ثم قال فجأة:

- « على فكره! لك عندى حلقة ممتازة تليق بوجهك وبشعرك الخفيف هذا! ثم إنى اشتريت شفرة جديدة من أعظم الماركات

أظنها ستجعل ذقنك هذه الناشفة أنعم وأطرى من الحرير القز!
إجلس أمامى لأريك فن الحلاقة على أصوله!!»...
وضع الحقيبة على حافة الشباك، فتحها بسرعة. صحت فيه
بغیظ وضيق:

- «أنت قلت إنك سترينى وثائق ورسائل السماء اليك فأين
هى أولاً وقبل كل شىء؟!»

ترك الحقيبة مفتوحة وأشار بابتسامة ضجرة إلى الخرائط
المرسومة على الحوائط قائلاً:

- «هذه هى!! ألم يكفيك كل هذا؟! سأقرأها لك الآن على قدر
ما فهمته منها! ولكنى كنت أحب أن أفعل ذلك وأنا مندمج فى
الحلاقة لك! إن الحلاقة تجعلنى أتوهج تستحضر ذهنى ولو كان
فى بلاد بعيدة!».

- «دعك من الحلاقة الآن!».

- «ستشكرنى لو خلقت لك!»

صحت بغیظ شديد:

- «يا أخى وكيف تحلق لى بحق الأبلسة؟! هل أتربع على
الأرض وتتقرص أنت أمامى؟!»

- «وما الداعى؟ اجلس على أرضية الشباك وأظل أنا واقفا!
سُمك الحائط عريض كما ترى!»

- «اعفنى من الحلاقة أرجوك وإلا فـدعنى أنصرف!»

- «براحتك! والآن سأقرأ لك بعض سطور هذه الرسائل المقدسة!!»

أشار بقلم من الرصاص نزعته من جيبه قائلاً وهو يضع سن القلم على الحائط:

- « ما هذا الذي تراه؟ »

- «جبر تساقط بفعل الرطوبة لا أزيد ولا أقل!»

رمقني في استخفاف ثم انفجر ضاحكاً:

- «هذا ما توقعت أن تقوله! ولكن لا! ليس هذا هو الأمر! إنما الحقيقة هي أن هذه الخطوط التي أمامك لم تحدث هكذا عبثاً ولا صدفة! أقصد أن حركتها هذه ليست عشوائية! فلا شيء يخضع للصدفة والعشوائية أبداً في هذه الحياة! كل شيء له حكمة، معنى يتجلى في حركته الذاتية! كل خط مثلاً يرتفع إلى أعلى هكذا متعرجاً متلوياً؟!، ما الذي يجعله ينحدر إلى أسفل ثانية؟! هذا ليس صدفة! ليس عشوائية! بل تحرك هكذا ليصنع هذه الدائرة! وتصنع الدائرة مع هذا الخط الآخر هذه الربوة! وهذه المناظر المتعددة إنما هي في حقيقة أمرها كلمات ذات معنى ومنطق!! إن الله سبحانه باختصار- وهو قادر على كل شيء - يرسم لي العبر والمواعظ! يشخص لي أزمنة سوف تجيء وأحداثاً سوف تقع!! يحدد لي رموزاً عميقة!! لم لا تكون هذه آية من الآيات الكونية البينات نبهني وحى من الله إلى

محاولة قراءتها وأخذ الموعظة منها والدرس والتنبيه!! لا تتصورنى مجنوناً فأنا فى كامل قواى العقلية بل لم أكن فى حياتى أعقل منى الآن!! وأنت بعد قليل سترى تفاصيل الرسوم بدقة! وحينئذ سترى ما وراء هذه الرسوم والأشكال!! على كل حال اقترب منى وركز بصرى على حركة هذا القلم أينما سار أو توقف! وإنى لوأثق أنك سوف تقتنع وترى نفس ما أرى!!».

- «أرى ماذا وأقتنع بماذا يا هذا؟! إما أنك مهتز عقلياً أو أنك تستخف بعقلى!».

- «من فضلك! نحن أصدقاء قدامى! من حقه أن تهاجمنى ولكن بلطف! وليس من حقه اتهامى بالجنون فأنت منذ قليل كنت لى المديح بالكيلة! فعلى الأقل أنت واثق من صحة عقلى الذى كتب هذه الأشعار التى أطربتك!!»

- «أستاذ أنت الآن تخرف! هذا الجير وقع عن الحائط بفعل الرطوبة لا أزيد ولا أقل! وكل بيوت الناس القديمة يحدث بها هذا!»

- «ولماذا لم يسقط الجير مرة واحدة؟! ما الحكمة فى أنه يسقط بطريقة ترسم هذه الرسوم وتخط هذه الخطوط كأنما بسن القلم؟!»

- «قياساً على هذا فإن كل البيوت المجاورة لك تجينها رسائل السماء! فلست أنت وحدك المصطفى!»

- «كل البيوت قد يحدث لها شيء كهذا أى نعم ولكن الله لم يوح لأحد من أصحابها بقراءة الخطوط التى تنتج عن التساقط الجيرى!! الله سبحانه لا يوحى للأنبياء فحسب! بل يوحى للناس كافة! للطير! للحجر! للشجر! للأرض! لكل شيء! الحياة نفسها وحي من الله! الروح التى فىك وحي من الله! الطفل الوليد يرضع ثدى أمه بوحى من الله! يعرف أمه وأباه بوحى من الله! وأنا بوحى من الله رأيت أنه من الممكن قراءة هذه الخطوط على حوائط منزلى! إنها موجهة لى أنا شخصياً!! وعلى فكرة! إنك لو تأملت فى مثل هذه الخطوط فى كل بيت فستجد أنها تختلف من بيت لآخر اختلاف البصمات! لقد تأملت هذا بنفسى فى كل البيوت التى دخلتها فوجدت أن كل حائط عليها بقع عارية أما عندى فخطوط مرسومة لها معنى ومنطق! ألهمنى الله تفسيرها فما الذى يغضبك فى هذا؟ خليك مع الكداب لحد باب الدار كما يقول المثل!»

- «قل إذن ما يعن لك!»

أشار بالقلم الرصاص نحو التشكيلات الغريبة قائلاً فى جدية شديدة التجهم:

- «ما هذا التشكل كله؟! أليس يأخذ منظر مدينة كبيرة متهدمة يعمها الخراب فى القلب مع أن القباب والمآذن والمداخن وأعمدة النور وأسلاك التليفونات والهوائيات توحى

بأنها عامرة؟»

تأملت الشكل جيداً، فإذا هو بالفعل كما يقول، إن الصورة التي رسمها في خيالي راحت تتضح شيئاً فشيئاً وتنطبع على الشكل المرسوم على الحائط بشكل جليّ، وبدرجة شككتني في سلامة عقلي نفسه فخفت أن تكون عداوة قد سرت إليّ.

قال: «جميل؟»

قلت: «جميل!»

أشار إلى شكل هلامي معلق على أعلى قمة في ما اعتبرناه حطام مدينة، وكان يميل برأسه نحو منحدر سحيق . قال:
- «بم يذكرك هذا الشكل؟ هذا الرأس المحووط بشال من الشعر! وهذا البدن المرن القوي! وهذه الموخرة العارية مع الذيل والأقدام الأربعة أليس هذا سبعاً؟ أسداً بمعنى أصح؟!»
قلت بكل اقتناع:

- «نعم هو كذلك! سبع ولا كل السباع! هو فعلاً لا يمكن أن يكون إلا سبعاً»

قال كأن هذا شيء مفروغ منه: «جميل!». ثم أشار إلى شكل آخر يطلع من جوف الخراب متطلعاً نحو السماء وأخذاً سمته نحو القمة المرتفعة:

- «وهذا الشكل أليس يوحي لك بأنه كلب؟!»

هززت رأسي في تأييد قاطع:

- «نعم هو كلب وابن كلب أيضاً بلا جدال!»

رفع ذراعيه في انتصار وهتف:

- «الحمد لله! هذا إذن: سبع يسقط وكلب يصعد!!» ولمع في

عينيه بريق مخيف، فيما أخذت أردد لنفسى في اندهاش

وانجذاب: سبع يسقط وكلب يصعد، قول يدعو للتأمل حقاً. فإذا

هو يضيف:

- «لقد كان السبع حارساً للخراب وحامياً لهذه البقية الباقية

من العمار! وسوف يصعد الكلب ليعيش فوق قمة الخراب!

وسوف يأكل الجيف التي خلفها السبع فيسمن وينظف المكان

فيها ويبقى في انتظار سيد يلقي إليه بالفتات ويتملك المدينة

يحولها إلى مشروع خاص لسوف يكثر عدد الأسياد الغرباء

وتكثر فضلاتهم بعد التخمّة!! سيكثر أيضاً عدد الكلاب بكثرة

الجيف والفضلات المتبقية من الأسياد!...»

ثم تراجع عن الحائط في رشاقة ومرونة فصار بحذاء الحائط

المقابل. جذبني من كتفى بقبضته ليحيى بي إلى جواره ضغط

بإصبعه على كتفى صائحاً:

- «والآن انظر إلى الصورة من بعيد! ألسنت ترى أن تحت

أقدام السبع ما يشبه الرقم الحسابى الطويل!؟»

بالفعل كان منظر ما اعتبرناه قباباً ومآذن ومداخن وأعمدة

وأبراج قد صار من بعيد على هيئة أرقام. قال:

- « هذه الدائرة السوداء هي فى حقيقة أمرها صفراً!!
وبجوار رقم سبعة! بجوار رقم تسعة وهو نفسه عامود فوقه
فانوس! وهذا رقم واحد وهو نفسه عمود أيضاً ولكن بلا فانوس
فلو أننا قرأنا الرقم من اليسار إلى اليمين فيكون نطقه ألف
وتسعمائه وسبعون!! أى أن لعبة الزمن قد دخلت فى الموضوع
كما ترى! فلا بد أن هذه الألف وتسعمائة هي عدد السنين كما
ندونها فى التقويم الميلادى الذى نعتمده فى بلادنا قبل وبعد
التقويم الهجرى! وما بعد الألف وتسعمائة يعنى استمرار
الأعوام! والسبعون هي وعاء زمنى يحدث فيه حدث جلال ربما
كان بداية الخراب التام! ربما يكون عاماً فاصلاً بين زمن وزمن
ربما تقوم القيامة!!»...

صمت برهة قصيرة ليرى وقع كلماته على، ثم استطرد كأنه
يشد خيط الأمل فيما هو يقترب بى من الحائط ثانية:

- «ولكن! فلنكن أبعد نظراً! هذا المنحدر الذى سيسقط فيه
السبع! انظر تحته! تجد ما يشبه الحديقة القفراء الجافة
الموحشة! تلك هي الحفرة الأسطورية التى سيغيب السبع فى
جوفها إلى الأبد! والآن انظر إلى خلف الحطام من الناحية
الأخرى تجد ما يشبه الحيرة الضيقة ذلك هو مستنقع العدم
الذى يلقي فيه بكل من لا ينفع كلب حراسة! غالباً سيتسع لكل
أبناء هذه المدينة المؤمنين بواجب الدفاع عنها!! سيُسَلِّط عليهم

السادة الغرباء كلاب حراستهم تنهشهم فيتراجعون إلى الخلف
حيث تجذبهم الهاوية!!»...

واستدار كالجندي المدرب على: خلفاً در. أدارنى معه موجهاً
بصرى بإشارة من قلمه إلى الحائط المقابل:

- «انظر الآن فى هذه الصورة جيداً لا يفوتك شىء فيها!»...

كانت صورة كرنفالية كأنها مرسومة بريشة فنان سورىالى
كبير ذات حركة مدروسة جيداً: عشرات الأشكال المتناقضة
المتألفة معاً: سوق ريفى، مولد السيد البدوى، طراطير، زعابيط،
طرايش، قبعات، طواق، عمائم، قلنسوات، أجساد منبعجة،
أخرى كالزعازيع، كائنات لا يعرف فيها الذكر من الأنثى..
رفع كفيه صائحاً:

- «أظنها واضحة وغير محتاجة لشرح! ذلك هو عالم
المهرجين والمحتالين والأتباع وأرباب المتع والفنون المسلية
والقوادين!! هأنت ذا تراهم يوجهون الحُطام ولا يحفلون بشىء
ذلك أن البقاء لهم فى النهاية!! إن أى شريف حقيقى لن يكون له
أى مكان فى مدينة الكلاب والأسیاد أصحاب المشاريع
المدرارة! إذ لا بضاعة لهم فى هذه السوق الصاخبة سوق
المهرجين الهازليين مصاصى الدماء فهم أنفسهم بضاعة
للمهرجين!!»...

أشعل سيجارة قدمها لى بود عميق دافىء، وأشعل لنفسه
أخرى، جذب منها الأنفاس بعمق:

- «ألسـت ترى إذن - تبـعا لهذه الرؤـية الواضـحة - أن الجادين والشرفاء والوطنين مقضى عليهم بالفشل الذريع لا محالة وأن شاعر الأغنية الشعبية الشهيرة لم يكن يمزح فحسب حينما طالب بالتقفيل على كل المواضيع إذ أن الجو بديع والدنيا ربيع؟! أشعر أنى قد دوشـت رأسـك! اقعد إذن لأخلق لك! حقـق لنفسـك أمنيـة كان يجب أن تتمناها منذ سنوات طويلة: أن أخلق لك مثل النجوم الذين أخلق لهم! أريد أن أرفعك لمرتبة النجوم وهذا فال طيب! يمكنك أن تجلس على حافة الشباك ! هيا...»

تركته ومضيت نحو إحدى الحجرتين المواجهتين:
- «دع الحلاقة الآن! أريد أن تقرأ لى بقية ما فى هاتين الحجرتين من رسائل موجهة إليك من السماء!!»
مشى خلفى:

- - «إنها فى مسائل أخرى كثيرة وعميقة! سوف لن تصدقها بالطبع! ستوجع لى دماغى على الفاضى لكن لا بأس من أن أطلعك على شىء منها!!»

تقدم فى حماسة شديدة نحو الحجرة القريبة، دخلها مضيت وراءه، لكنى توقفت على بابها، فلاحظت أن فى الباب مفتاحاً، فانبثقت فى رأسى فكرة شيطانية أنجوبها من هذه الورطة السخيفة التى ليس من ورائها طائل. أعطانى ظهره وشرع يتأمل الحائط المواجهة تمهيداً للشرح، فبكل بساطة وهدوء جذبت باب

الحجرة بسرعة خاطفة، أغلقته، أدت المفتاح: تك.. تك..
هرولت فى الردهة كطفل عابث، فتحت باب الشقة وخرجت
لاهثاً فانغلق الباب خلفى من تلقائه. تلقفتنى الحارة، لفظتنى إلى
الشارع الفرعى، تتسارع دقات قلبى تسبق خطواتى..
فى الشارع العمومى الذى يشق المدينة لفحنى الهواء
فشعرت كأن دماغى قد رُدَّ إلى بغته. انسحب الطنين فانبعث
الصفير فى أذنى. عاد صوت وجيه ابو وهدان يهدر فى رأسى
صافياً ناعماً ناضحاً بالمرارة، بلهجة حكماء العصور الغابرة.
تمثلت لى صورة العراف تيريزياس فى المأسى الإغريقية
القديمة يلقي النبوءة حاسمة قاطعة جليلة النبرات موجزة
العبارة. دهمنى تساؤل مفاجئ: من أين يستمد مثل هذا
العراف نبوءته؟ من ذا الذى يُطلعه على الغيب؟ أهى قدرة فذة
على استقراء ما وراء الأفق؟ ما تبطنه النفوس والمشاعر
والأحداث؟!.. لكننى شعرت أن ما قاله وجيه ابو وهدان- وان
اصطبغ برؤية هزلية قائمة على الوهم والتخليط - يحمل قدراً
كبيراً من النفاذ والاستشراف..

كانت أضواء الشارع شاحبة مختنقة، ميته فى بقاع كثيرة
لاضوء فيها. يضمحل الضوء كلما اقترب الشارع من الخلاء
العريض المتصل بأرض زراعية شاسعة، حيث تتباعد المسافات
بين المباني فتبدو نهاية الشارع كذيل الفأر. قمر ضئيل جداً
يكابد ويناضل جحافل سحب تنطرح فوقه بغزارة فتقبحها ثقباً

صغيراً كعدسة صغيرة مدورة. تذكرت أن ما فعلته منذ لحظات قليلة بوجيه ابوهذان شيء في غاية الجبن والخسة.. تذكرت أشعاره البديعة التي أمتعتني بحق، وطريقة إلقاءه لها موسقة مشحونة بالانفعال والصدق والمعاناة. شعرت - لأمر ما - أنني قد صرت الآن مقتنعاً تمام الاقتناع برؤيته هذه الهزلية المجنونة. رأيتني أستدير عائداً إلى بيته لأفتح الباب بأى شكل وأفرج عنه..

قطعت الشارع والحوارى فى دقائق معدودة. أشعلت القداحة داريت لهبها الواهن براحة يدي اليسرى حتي تبينت فى ظلام العتبة موضع شراعة الباب. دفعتها فانفتحت، فشعرت بفرحة طاغية، سربت أصابعي من خلال الشبكة الحديدية، أزحت لسان الكالون عن مخبئه، انفتح باب الشقة، الردهة كما هي، غارقة فى الصمت والرطوبة كالمقبرة، حقيبة عدة الحلاقة موضوعة على أرضية الشباك، المفتاح فى باب الحجرة كما تركته، مددت يداً مرتعشة، أدريته: تك.. تك.. تك. دخلت مفتعلاً ضحكات حاولت جهدى أن تكون مرحة تشي بالمزاح والشقاوة. كانت الحجرة خالية تماماً اقشعر بدني، صرت أنتفض مقلباً البصر فى كل ركن متوقعاً أن تنشق الأرض عن عفريت يلتهمنى أو يطبق على قفاي. بصوت راجف مضطرب رُحت أنادى: وجيه! وجيه. اقتحمت الحجرة الثانية، فالمطبخ، فدورة المياه، ثم أعدت الكرة ثانية فتالفة فرابعة وصوت ندائى يعلو يرتعش يقترب من الصراخ الفاجع، ولكن ليس ثمة من أحد على الإطلاق.



الدَّسَّاس

جدتى معزوزة لم تكن أم أبى، بل كانت- ويا للعجب- أم جدى نفسه، إنها جدة أبى أيضاً. أما جدتى المباشرة - أم أبى- فإنها ماتت منذ وقت مبكر، قيل لأنها ينست من أن تكون كبيرة الدار ذات يوم لها طالما بقيت سطوة جدة أبى على قيد الحياة، وبما أنها -جدة أبى- قد جاوزت المائة عام من عمرها بصحة جيدة فإن الأمل فى رحيلها خفتت ذبالته فى عيني جدتى «ست»، تلك المسكينة التى لم تهناً بمركزها يوماً واحداً فقبعت فى الظل سنوات شيخوختها تتطلع فى حسرة إلى الأضواء المنصبة كلها على جدتى الكبرى معزوزة.. حتى زارها مخص حاد ذات ليلة وفى الصباح أخذها معه إلى القبر. وقيل إن أحداً لم يشعر برحيلها سوى أبى، الذى انتابته حالات من الشعور بالذنب، فأدمن إقامة الختمات وزيارة المقابر والتصدق رحمة ونوراً على روح المرحومة والدته التى لم أحظ بشرف رؤيتها.

كانت تقضى النهار وشطراً من الليل فى صلاة وتسبيح. وذات يوم صعدت إليها على وجل فى غرفتها العلوية المنعزلة، لأحكى لها مناماً رأيته، لكى تفسره لى، مثلما يفعل كل من يرى مناماً غامضاً، ذلك لأنها كانت بارعة فى تفسير الأحلام براعتها فى اكتشاف الأنساب والقرايات من وجوه الناس، فى تلك الأثناء كنت أرتعد من رؤية ملامح وجهها الدائرى العريض كرجيف المطرحة، الشديد البياض والهيبة وقد امتلأ بالتجاعيد الغائرة

كأنها سكك ودروب فى أرض رملية، بجبهة عريضة بارزة كدرج
البورية ذى الشكل المقوس، الذى قيل إنه من شوارها الملوكى.
تحت الجبهة عيان كفتقين واسعين بين كتل من السحاب يظهر
منها لون السماء الصافية، إذا نظرت فيها برهة تملكتنى
القشعريرة، فحينما يهبط الجفنان على الجفنين أشعر كأن لحافاً
ناعماً قد غطانى ولفّ جسدى كله، سيما وأننى كنت مغرماً
بالنوم على ركبته، فكانت الصلة بين عيني وعينيها عمودية
قصيرة مركزة، وبمجرد وضع رأسى على ركبته امتد يدها
الكبيرة بأصابع كأصابع الموز، فتمر على جسدى كله متممة
بالرقيا تتمه تتخيلها تتأوب لائنى يتصاعد مما يشى بأعين
الحسود لأبدة كامنة فى أضلاعى، لكنها لن تتركها حتى تجتثها
من جذورها فتشعر أنها قد لفظت التثاوية الأخيرة فى صدرها.
بابتسامة عريضة جداً أضفت على وجهها مريداً من الضوء
والإشراق لكزتنى بيدها الممسكة بالمسبحة:

- «إنت كمان بتعرف تحلم؟ دهده دهده!». غاظنى استنكارها
لقدرتى على الحلم، نوى أن أمسك عن ذكره، لكنها جعلت
تستدرجنى بالتشجيع حتى حكيت:

رأيت فيما يرى النائم أننى كنت مرتدياً ملابس إفرنجية،
قميصاً بياقة، على سروال قصير من الصوف الثمين، فوق
رأسى طربوش وفى قدمى حذاء، مع أننى فى الواقع لا أرتدى

سوى الجلباب وقدمى لم تعرف الحذاء بعد. وكنت فرحاً لأنى
زاهب لزيارة أمى التى خيل لى لحظتها أننى لم أرها منذ مدة
طويلة جداً. وكان يخيل لى كأننى أعرف أنها غاضبة من أبى
ومقيمة فى دار أبيها، وأن دار أبيها هذه فى بلدة بعيدة، وأن ثمة
من سيجىء حالاً ليأخذنى لها، فهناك فرسان مربوطان فى حديد
شباك مندرتها، منظرها بديع رهيب، عليهما سرجان من القطيفة
الحمراء، يقف بجوارهما عبد أسود يرتدى ثياباً شديدة البياض
وتعمم بشال كبير أبيض. وكان يبدو كأن ما يشبه العراك يدور
فى المندرة بين أبى وبين من سيأخذنى، فتصل إلى أذنى بعض
عبارات كأنها التهديد الخشن يبين فيها صوت كصوت أبى، ترد
عليها عبارات مماثلة بل أشد منها، فيها صوت كصوت شكرى
أفندى التركى ناظر زراعة الوسية.

عند هذه النقطة صارت جدتى تنتفض شيئاً فشيئاً. بيدها
الكبيرة أطبقت على كتفى، عدلتنى جالساً، فإذا بعينيها كشاروقة
الفرن تفح باللهب. صارت تنظر فى عيني نظرات غامضة لكنها
مخيفة تحمل الكثير من الاسترابة والتشكك والحيرة. خطت على
صدرها فرزة:

- «بسم الله الرحمن الرحيم! ما هذا الذى قلته

يا ولد؟! قلة ثانية! واحدة! واحدة! هه!

صف لى كل شىء رأيته! ماذا رأيته؟!»

شعرت كأنتى ارتكبت جريمة. كدت أقف عند هذا الحد زاعماً
أن المنام قد انتهى. لكنها أخذتني فى حضنها، هدأتني بتقبيل
شعر رأسى، شجعتنى. صرت أحكى لها من الأول، وهى تتابعنى
متسعة العينين ودهشتها تتعاضم لدى كل كلمة أفوه بها، فإذا
هى تعيد ترديد كلامى كأنها تريد حفظه، أو لعلها تقارنه بشيء
ما قد حدث من قبل:

– «العبد الأسود ممسك بالخيل؟! التركى يتعارك
فى المندرة؟! تلبس البذلة والحذاء والطربوش؟!
تذهب لزيارة أمك فى بلدة بعيدة؟! أمك كانت
غاضبة من أبيك؟! رباها! ما الذى يقوله هذا
الولد؟ هل يُعقل هذا يا ربى؟! من يكون أنباء؟!
إن أحداً على ظهر الأرض لا يعرف هذا الذى حدث
ولم يحكه أحدٌ لأحد! حتى أبوه نفسه لا يعرفه!!
أكمل يا عكروت يا مقصوف الرقبة! ماذا رأيت أيضاً
بعد ذلك؟!»

قلت إن الأفندى التركى خرج من المندرة طويلاً كالنخلة
متيناً كالحائط بشوارب واقفة منتصبة، يتقمط ببذلة عسكرية،
وفى جنبه سيف وغدارة فى جرابين من الجلد الأحمر الغامق.
مشى خلفه ناس كثار يطيبون خاطره. ومن خلفهم أبى يرتدى
ملابس غريبة لم أرها عليه من قبل، لا يكف عن الزعيق والتهديد

بالانتقام إذا تراخى هذا الرجل فى إعادتى إليه بعد بضعة أيام
كما اتفقوا بشهادة القوم. ثم رأيتنى أركب الحصان أمام العبد
الأسود الذى ربط قدمى فى الركاب وأحاطنى بذراعه فى حرص
شديد. ومن خلفنا الأفندى التركى يتبختر فوق حصانه فى
ظلهما الممتد أمام حصاننا. ولا أتذكر الطريق الذى قطعناه لأنه
كان طويلاً جداً، ثم إن الجو كان شديد الحرارة والعبد الأسود
يطرح فوق رأسى شمسية، ويظهر أننى نمت على صدر العبد
الأسود، لكننى حينما فتحت عيني رأيت أمامى بحيرة تنبعث من
أرضها الألوان الزاهية وتحوطها الأشجار والورود.

جدتى فى فزع حقيقى:

- «رباه هذا غير معقول أبداً! أبداً!

أبداً!! أكمل يا مقصوف الرقبة! صحوت

على البحيرة؟ هه! هه! البحيرة!! يارب!

لقد قال البحيرة! أكيد يقصد حمام السباحة

فى الجنينة! أخشى أن يقول إن العبد

الأسود أنزله وغسل له وجهه ونفض

التراب عن ثيابه فيما أنظر أنا من الشباك

البعيد فرحة!!»

انتفضت واقفاً من الخوف وقد شعرت أن شعر رأسى يقف

كالأسلاك، إذ خيل لى أنها شيطانة تعرف كل شىء، كأنها كانت

معى فى الحلم، قلت وفرائصى ترتعد: نعم! نعم! هذا حدث فعلاً
يا جدة عند هذه البحيرة نزل الأفندى التركى هو الآخر، فجاء
من أمسك بالفرسين فمضى بهما إلى بعيد. ثم حملنى العبد
الأسود على صدره، ومضى بى خلف الأفندى التركى. مررنا فى
طريق تحف به الأشجار، فى نهايته البعيدة كانت بوابة الدار
تقرب.

صرخت جدتى ضاربة فخذها بكفها:

- «سيصينى الولد بالجنون! هل تتذكر شكل هذه البوابة؟!»

« كانت بوابة كبيرة بنية اللون! عليها كتابة ونقوش وزخرفة! »

- «يقف على بابها أحد؟!»

- «رجلان أسودان شكلهما مخيف! ظهر كائننى معروف لهما!

داعبنى واحد منهم! والآخر فتح الباب! فحملنى الأفندى التركى
ودخل بى!»

- «هل مشيتما طويلاً بعد دخولكما البوابة؟!»

- «نعم! ومررنا بغرف كثيرة على الجانبين مليئة بالحريم! ولا

يوجد إلا قليل من الرجال السود!»

- «الخصيان! كانوا أربعا!»

- «حودنا على اليمين فمشينا فى ممر ثان!»

- «بالضبط! حتى وصلتما إلى آخر باب على اليمين!»

- «وفيه سلم متولب...»

– «شيطان! أقسم أنك شيطان! هيه! هيه!
صعد بك السلم حتى وصلتما إلى حجرتي!!»
– «حجرتك؟!»
– «تتذكر شكل الحجرة؟!»

– «فيها سرير نحاسي! ومقاعد تشبه الكنب الأفرنجي!
وكنت أعرف أن أمي تنام في هذا السرير تنتظرنى! قلما سمعت
خطواتنا على السلم الخشبي نزلت وفتحت الباب بسرعة وهي
تصيح: حبيبى وصل؟ حبة عيني وصل؟ ثم نزعتنى بسرعة من
ذراعى الأفندى التركى! فغبت فى حضنها بعض الوقت! ولما
فتحت عيني!.. يا ربى.. ل... إتنى خائف يا جدة!.. ل... ل... لقيت
أن أمي هذه فى المنام تشبهك الخالق الناطق! وكان يخيل لى
أننى أعرف أنها أنت! لكننى خفت لا أعرف لماذا؟! وصرخت
فصحوت من النوم!!»

ياله من منظر. لقد انهارت جدتى معروزة. كل عين من عينيها
برتقالة تحت المعصرة تسرب الدموع الحمراء وهي ترتجف،
تنظر لى فى خوف ممزوج بالتشكك كأننى عفريت من الجن.
تأخذنى فى حضنها تارة ثم تعود فتدفعنى إلى بعيد قائلة: بسم
الله الرحمن الرحيم! دستور! دستور!.. ثم وقعت مغشىاً عليها.
فانطلقت أصبح مرتعباً من فرط الشعور بالذنب. جاءت الدار
كلها، وأولاد عمى، والحاجة نوحاية زوجة عم أبى وهي تقاربها

فى السن والصحة وقوة الذاكرة. صاروا يجرون لها بعض
الإسعافات وهم ينظرون لى فى غضب يخفى اتهاماً غامضاً،
وأنا لا أنى أردد أننى لم أفعل شيئاً أكثر من أننى حكيت لها
مناماً كى تفسره لى. فتنهال على الاسئلة جاهزة مليئة بالشك
والاسترابة:

- «ماذا قلت فى منامك المشئوم هذا؟!»
- «المصيبة أن تكون بشرتها بالموت!»
- «ماذا اخترعت لها من فال سىء يا وجه
المصائب؟!»
- «والله لا يرد عنك إلا علقه ساخنة!»
- «الكى بالنار على مؤخرتك هو الحل!»
- «انطق! ماذا قلت لها بالضبط؟!»

حكيت لهم المنام من جديد، وبتفصيلات إضافية كنت قد
نسيتها فى الحكى الأول. منها أن أمى التى فى المنام، والتى
كانت صورة طبق الأصل من جدتى معزوزة، كانت تربط ساقها
بشاش، كانت تعرج وهى تمشى إلى كنبه بجوار الشباك،
وبالأمارة كانت هناك إلى جانب الكنبه ماكينة خياطة مما يدار
باليد.

عندئذ دبّت الحياة فى جدتى الكبيرة معزوزة فانتفضت قاعدة
تهذى وقد برقت عيناها بريقاً جهنمياً:

- «شيطان تلبس الولد! كل ما حكاه صحيح! نعم! يومها

كانت قدمى ملووحة! ولوحتها هى سبب الغضبة التى استمرت أكثر من ثلاثة أعوام! رباها! ولكن كيف عرف هذا؟! هذا الولد لا يمكن أن يكون قد سمع إلا! لقد شاف بعينه!!»

وحتى تلك اللحظة لم يكن أحد من أهل الدار يعرف أى شىء عن تاريخ جدتى الكبرى معزوزة؟ أم جدى الكبير «على سعد الجلبى»، المعلقة صورته فى مندرتنا بطربوشه القصير ولحيته البيضاء المدببة وعينه الضيقتين المنتشرتين فى عيوننا جميعاً ولكن، من خلال هذيان جدتى الكبرى، وثرثرة المتحلقين، عرفت شطراً غريباً من تاريخها كان مفاجأة لنا جميعاً..

فجدتى الكبرى معزوزة، هذه، هى فى الأصل ابنة جارية من جوارى أفندينا شقيق الخديوى لا أدري من هو بالضبط. أهديت إليه تلك الجارية بطفلتها من أحد كبار التجار الشراكسة، فأحبها أفندينا لتنوع مواهبها الكثيرة المتفردة، فقربها إليه واستنام لها، وتبنى طفلتها فتكفل بتربيتها. وكان والد جدى «سعد الجلبى»، الذى يبدو أنه فى أصله البعيد من المماليك الجلبان، يعمل فى معية أفندينا كمسئول عن الخيل والدواب الخاصة بوسية أفندينا المتاخمة لبلدتنا وهى إحدى وساياها المتعددة فى البر المصرى من الجنوب إلى الشمال. وكان جدى سعد مجداً مخلصاً فى عمله، فزوجه أفندينا من ابنة جاريته - جدتى الكبرى معزوزة - فانتقلت العروس لتعيش مع زوجها - جدى الأكبر سعد - فى سرايته فى بلدتنا، تلك السراية التى

أخنى عليها الدهر فتحولت إلى دار عتيقة هرمة تأوى عنقوداً كبيراً من الأسر من بينهم أسرتنا وكلها من سلالة جدى «على» ابنها. وحدث - شأن كل حوادث بلدتنا - أن أولاد السوء وسوا بين أفندينا وجدى الأكبر «سعد» فعزله، فأصبح يعيش فى بلدتنا من ريع قطعة أرض زراعية استصلاحها وتملكها، لكن الخلافات راحت تدب بين جدى الأكبر «سعد» وجدتى الكبرى «معزوزة»، تتصاعد إلى حد الاعتداء عليها بالضرب المبرح لكنها قد انجبت له جدى «على»، فلما صار طفلاً فى نحو السادسة من عمره نشبت معركة بين جدى الأكبر وجدتى الكبرى، فضربها بقسوة حتى جرت من أمامه فتعثرت فوقعت فوق ساقها فالتوت، فركبت فى الحال إلى أهلها فى قصر الحرملك بقصر أفندينا الذى يقضى فيه معظم أيامه فى تفتيش وساياة قرب القاهرة. وكانت هى تظن أن جدى الأكبر «سعد» سيذهب إليها بعد حين ليصلحها، لكنه خشى من مواجهة أفندينا فاكتفى ببعث المراسيل، وتشبث أفندينا برأية فى أن يجيء هو بنفسه لى يستفه ويعطيه الدرس الواجب، فتزايد خوف جدى الأكبر، فتركها مدة تقترب من ثلاث سنوات مليئة بالعند ونشfan الدماغ، شعرت هى أثناعها بالشوق الشديد لرؤية ولدها المعذب بدونها. أرسلت تطلبه بالدوق، فتمسك جدى الأكبر بمجيئها بنفسها لى تراه، وعشمه أن يكون مجيئها نهائياً وينتهى الخصام، فما كان من أفندينا إلا أن بعث قائد حرسه الخاص

يطلب الولد بالقوة، فاصطحب معه أحد العبيد، وفعلاً جىء
بالولد، وبنفس التفاصيل التي رأيتها أنا فى هذا المنام
العجيب!..

منذ ذلك التاريخ قامت بينى وبين جدتى الكبرى علاقة شديدة
الخصوصية. أصبحت لصيق حضنها العريض الدافئ، يحلو
لها البهجة فى عيني وفى تقاطيع وجهى بنظرات شبه جنونية، ثم
تبتسم قائلة: كيف لم أكن أنتبه إلى أنك صورة طبق الأصل من
جدك «على» وهو فى مثل سنك؟! وكان يعترئها فرح عظيم لا
أقدر على وصفه، فيبدو وكأننى بالفعل ابنها الذى عاد إليها
أخيراً بعد طول غيبة واشتياق، فإذا هى تضمنى إلى صدرها
بقوة، فأشعر بحلمة ثديها تتمدد تنتصب تكاد تخرق الثوب
لتدخل فى فمى، وتروح هى تطلق أصواتاً كمواء القطط فيما تنيم
خدها فوق خدى مهتزة بى ذات اليمين وذات اليسار فى نشوة
بالغة. لكن نظرة الشك الجائر ظلت تطالعنى كلما نظرت فى
عينها.

تم التحويل من
مكتبي

ضرب الودع

رغم صغر حجم بلدتنا، ووقوعها في منطقة نائية قريبة من البراري إلا أنها محصورة بين بحر نشرت ومصرف نمرة تسعة، فإنها كانت مشهورة في الحب باثنين لا ثالث لهما: اسمها بغرابته، وعبد المحسن جاد الله بطققان مخه الأقطش.

كانت مجرد عزبة يمتلكها اقطاعي كبير جداً اسمه حافظ باشا حسن، تعرف باسم: زهر الجمل. لا أحد يعرف سر هذا الاسم أو معناه من الأجيال الراهنة، لكن العجائز المخضرمين يقولون إن العزبة مقامة بين مرتفعين من الأرض أشبه بسنامي الجمل، فتبدو من بعيد ببيوتها القزمية الطينية وما فوق أسطحها من أحمال القش والحطب كظهر جمل بارك. ولربما كان لطرفة اسمها دخلاً في شهرتها إذ يحب الناس نطقه، لكن العجائز المخضرمين- أيضاً- يقولون إن شهرتها جاءت من الزمن الماضي قبل أن يفتتها حافظ باشا حسن ويبيعها لأولاده بعقود صورية، تحايلاً على قانون الإصلاح الزراعي الذي عرف أن ثورة يوليو بسبيلها لإصداره، حيث كانت هذه العزبة أشبه بوسية كبيرة شاسعة الأرض تحتاج لأنفار شغيلة، فكانت أهالي البلدان المتاخمة لها تجد فيها دائماً عمالاً باليومية، ورغم أنها قيدت في الأوراق الرسمية باسم أولاد الباشا فإنها ظلت تحت إشرافه المباشر لأن أولاده غير مقيمين في مصر

أصلاً منذ أن ذهبوا للتعليم فى لندن وباريس ونيويورك وفضلوا البقاء هناك بعد قيام الثورة. بقى العمل فى الأرض منتظماً ومنضبطاً بفضل ناظر زراعة وفى لسيده أمين مخلص فى عمله يُدعى سعد افندى النبروهى عرف كيف يحول معظمها إلى حدائق وكيف يدير بقيتها بأقل عدد ممكن من الأنفار الموسمين، إضافة إلى مجموعة ثابتة من الفلاحين أشركهم فى المحاصيل مقابل قيامهم بإفلاح الأرض. كان طيب القلب يحب كل الناس ويحب كل الناس فبات وجهها بارزا فى كل مجالس البلدة.

أما عبد المحسن جاد الله فإنه الحارس الخصوصى للباشا وسائقه الخاص أيضاً. كان فى الأصل قاطع طريق وهو فى شرح الصبا الباكر، ابن ليل يقلق منام أتن تخين فى العب كله بجميع بلدانه وعزبه، جسور بارد الأعصاب ميت القلب من يومه، حاصل على لقب ذى اليد الطرشاء منذ الطفولة، يكفى أن تسقط يده على خد إنسان لتعوج له فماً أو تهشم له أسناناً أو ربما تفقده الحياة فى الحال.

وبناء على هذه السمعة الطيبة لم يكن محتاجاً لاستخدام يده كثيراً، لا بالضرب ولا بطخ النار مع أنه مشهور بالقدرة الفائقة على التنشين فى عز العتمة فلا يخطئ هدفه ولا تطيش له رصاصة. بمجرد ظهوره فى الطريق ليلاً فإن من يلتقيه تسبب

ركبه فى الحال ويتفرض أمامه كل ما معه من مال وأبضاع يتركه له عن طيب خاطر مع الوعد بأنه لن يفتح فمه مطلقاً، ولسوف يفعل، سيما وأنه واثق أن شكواه ستذروها الرياح لأن أحدا لن يستطيع القبض على عبد المحسن جاد الله بأى حال من الأحوال. كان أمراً واقعاً يتقبله الناس باستسلام عجيب كما يتقبلون أقدارهم التى يعرفون أنها رُسمت لهم سلفاً، شأنهم دائماً مع جميع الطغاة البغاة على طول التاريخ المصرى. إلا الباشا، شغله أمره فلم يقبل بوجود رأس أشد هيبة من رأسه فى معيته. لهذا نجح فى تدبير الأمر جيداً، فنجطة محكمة شارك فيها كل رجاله مع رجال المباحث تم القبض عليه، فلما لم يتقدم أحد لاتهامه بشيء محدد اكتشف رجال الشرطة أنه هارب من الجندية فتم تجنيده فى الحال. هنا ظهرت شخصية الباشا، الذى ذهب بنفسه إلى إدارة التجنيد فجىء له «بالولد» ليرى شكل هذا الجبار المرعب، فإذا هو يفاجأ بأنه أمام صبي متين البنيان بارز الجبهة فى كبرياء، طويل القامة فى مهابة، بارز العينين تشع نظراتهما بالجسارة وقوة الشخصية كما تنطق ملامحه بفرط الذكاء، فقرر الباشا أن يضمه إلى حاشيته، فأوصى إدارة التجنيد بأن تدرب «الولد» على قيادة السيارات بجميع أنواعها. وبالفعل ما أن أنهى عبد المحسن فترة الجندية حتى كان سائقاً ماهراً يقود جميع المركبات من الدبابة إلى



السيارة الملاكى بكفاءة عالية.

فى اليوم التالى لخروجه استدعاه الباشا وعينه سائقاً لسيارته الخاصة، فأصبح بمثابة حارس قوى، يرافقه فى جميع المشاوير، يمشى فى إثره كجدار يحجب عوداً من السنط الجاف وقد وثق فيه الباشا إلى أقصى حد، ثقة هو جدير بها حقاً، إذ هو لم يكذب على الباشا فى شىء قط، لم يظهر منه سوى الولاء الشديد والمحبة العميقة لسيده وولى نعمته. كلمته عند الباشا هى الكلمة الوحيدة التى لا يراجعها الباشا. فإذا أخبره عبد المحسن أن الشمس طالعة فى منتصف الليل صدقه بدون أدنى تردد. أطلق عليه الباشا لقب رجل الرجال، يكلفه بالمهمات الصعبة فإذا هى مقضية. صار أهم شخص فى حياة الباشا. لا يتصور الباشا أن يصحو من النوم فلا يجد عبد المحسن يقدم له الافطار، أو يسمع دبيب خطواته فى الردهة استعداداً لتلبية أى نداء، أو يقود به السيارة، أو يرافقه إلى أى مكان. لم يعد للأمان اسم آخر فى عينيه وأذنيه سوى عبد المحسن.

للباشا قصر فى حى مصر الجديدة بالقاهرة، وآخر فى العجمى بالأسكندرية، وفى كل من القصرين حجرة مستقلة لعبد المحسن مفروشة بالفخامة ينام فيها. كان حلقة وصل بين الباشا وبقيّة الخدم، لكنه فى نظر الخدم والسفرجية والجناينية

أصبح الممثل الشخصى للباشا إلا أن عبد المحسن مع ذلك لم ينس طبيعته البراوية طبيعة قاطع الطرق الذى يسوح فى الحقول البعيدة يصادق الليل البهيم. كان يحب الليل حباً عظيماً، ولما لم يكن فى المدينة ليل فإنه دائم الرغبة فى السفر إلى البلد لرؤية والدته وأخيه. متعته الحقيقية يجدها فى ليل البلدة ومشاغبة نسائها. يموت فى حب النساء نساء البلد، فرغم أنه جرب نساء المدينة كثيراً فإنه يشعر أنه يفعل ذلك من وراء قلبه إنه يتعامل مع عرائس من الحلوى كعرائس المولد، حلاوة لا يستطيعها ولا تحرك مشاعره. نظرة واحدة من بنت من بنات البلد من تحت عقصة المنديل أبو أويه تزلزل قلبه. جرعة ماء من القلة القناوى أو حتى من الزير تروى أكثر من زجاجة خارجة من الثلاجة. طبق واحد من طبيخ أمه القريدى يشبعه أكثر من سفرة كاملة بأطعمة غريبة غامضة مموهة يتفنن فيها طباخو الباشا. من أقواله الماثورة إن أطعمة المدن مثل حياتهم ملونة مزوقة ملفوفة فى أسماء براقة أجنبية، ومنصهرة بطريق تُخفى أصول الأشياء تلغى مذاقها إذ اللحم ليس هو اللحم وكذلك البط والفراخ والخضراوات. ويقول الذين يستلطفونه أنه لا يمكن أن يصبح ابن مدينة على الإطلاق وإن اتسق على جسده القميص الأفرنجى والسروال والبذلات الكاملة من مخلفات الباشا، حتى وإن بدا أحياناً فى مخلفات الباشا أكثر أناقة من الباشا، حتى

وإن عوج لسانه ليتقن «اللغة» البندرية وبعض المفردات الأجنبية مثل «مرسيه» و«وبليز» و«هالو» بالنسبة للقاهرة، و«ياسو» و«كلاميرا»، و«كالسيرا» بالنسبة للإسكندرية المليئة بالجريج.

الباشا كان يدرك أن قلبه الوفي يمضيه الحنين دائما إلى رائحة الجيف مهما ترقى. عن طيب خاطر صرح له بإجازة أسبوعية ثابتة مدتها أربع وعشرون ساعة. صباح الخميس من كل أسبوع يركب إحدى سيارات الباشا المخصصة لتسويق الطلبات، فيذهب إلى البلدة يبيت مع أمه وأخيه ليلة ثم يعود مساء الجمعة على وجه السرعة ليكون في خدمة الباشا صباح السبت. نظام متبع كانضباط الساعة على مدى أعوام طويلة، لم يحدث خلالها أن تأخر عبد المحسن عن عمل أو موعد مهما اعترضته العقبات.

عمره ما كذب على الباشا، لكنه اضطر أخيرا لارتكاب كذبة حمقاء. السبب في ذلك «سنيه» زوجة الناظر الجديدة، سلبت عقل عبد المحسن أفقدته رشده فأصبح يخترع للباشا حيلاً مقنعة تتيح له فرصة السفر إلى البلد مرتين في الأسبوع.

كانت أجمل امرأة خطرت بقدميها على ظهر الأرض، أين منها جميلة الحواديت: القوم -حقا- غصن بان، الفم خاتم سليمان، البطن عجين خمران، العين كالفنجان، الشعر ليل يهدر

على الكتفين، الوجه قرص الشمس ساعة الشفق. سحرت
حضرة الناظر يوم رآها أول مرة مع أبيها سائق القطار في
طنطا، فنام بجوارها شهراً كاملاً يبعث الوسائط والمراسيل
والهدايا والتضحيات الكبيرة حتى وافق أبوها على زواجها منه.
شحن الناظر زوجه القديمة بعيالها إلى بلدتها بعد أن طيب
خاطرهما بكل ما طلبت، وأتت «سنينه» في احتفال كبير شاركت
فيه البلدة والعرب المجاورة، سكنت قصر الأبعاد بعد ترميمه
وتجديد أثاثه وحديقته.

في ليلة دخلتها وقعت عين عبد المحسن عليها، فحقق على
حضرة الناظر حقداً أعاده إلى لياليه البائدة حين كان قاطع
طريق حاكم بأمره في المنطقة. قرر أن تكون سنية له وحده
مهما كلفه ذلك من جهود حتى لو اقتضى الأمر أن يقتل حضرة
الناظر لكنه -شأن قطاع الطرق الأصلاء- لم يكن يحب التعجل
في الانقضاء وإلا خسر حياته، فبدأ يدبر للأمر على مهل، يكثر
من زيارة حضرة الناظر، يجلب الهدايا المتنوعة. سرعان ما
فهمت سنيه مضمون الرسالة، فمعظم الهدايا كانت تخصها هي:
زجاجات العطور الفاخرة، الفساتين من مخلفات نساء قصر
الباشا، مشغولات فضية بالأحجار الكريمة غضبت نساء القصر
على أذواقها «البلدى» علب الحلوى المرسوم على أغطيتها مناظر
مثيرة تُوحى بالجنس... إلخ.

الولد ذكى جداً، أذكى من حضرة الناظر بكثير، عرف كيف يوهم حضرة الناظر أنه لا يقصد هذه الهدايا قصداً إنما هي أشياء تفيض عن قصر الباشا فيأخذها قبل أن تؤول إلى الخدم، وأنه يوزع منها على الكثير من معارفه وليس حضرة الناظر وحده. ولما كان الجشع و«السفلة» تركيبة أصيلة خفية في نفس حضرة الناظر فإنه كان مستعداً للتصديق دون أدنى تشكك سيما وأن الأمر صحيح في مجمله، بل كثيراً ما كان يوحى لعبد المحسن أن يجمع له ما قد يتبقى من زجاجات الخمر في سهرات الباشا، وهو في الواقع يكاد يعز له أن يختلس زجاجات كاملة مقفولة إذ هو يعلم أن عبد المحسن منوط بشراء الصناديق وجلبها لسيدته من المحلات ومن الجمارك أحياناً.

كانت هذه المساومات- المازحة في البداية- هي المشجع لعبد المحسن على تقديم الهدايا لسنيته صراحة، فقد أيقن من أن حضرة الناظر لا مانع لديه من قبول أى شيء، نفذ له مطلبه فأغرقه في بحر من زجاجات الخمر الفاخرة، وأغرق حبيبة قلبه بما لم يكن يخطر لها على بال من الملبوسات والمشغولات والعطور والحلوى، فبات يعيش في عبيها، تحت ثيابها، رائحته تملأ خياشيمها على الدوام، فكانت وهي ترتدى القمصان الحريرية وتتعطر لتنام لزوجها تشعر كأنها تخون عبد المحسن، الذي حقق لها كل ما حلمت به وهي فتاة من فساتين وقمصان

وأحذية وتوكات شعر كالتحف وإيشاربات ومناديل وجوارب، أصبحت تجد نفسها مرغمة على المقارنة بين حضرة الناظر وعبد المحسن، فتجد أن عبد المحسن هو الأنسب لها من جميع النواحي، تجد لذة في نطق اسمه مجرداً: محسن، في حين ظلت تنادى زوجها -حتى في الفراش- باسم حضرة الناظر، هو الآخر لم يحاول لفت نظرها لهذا، بل كان يشعر بكثير من اللذة الغبية لأن زوجه لم تتجراً عليه بعد فمن الأفضل إذن أن تظل هكذا حتى لا تسقط هيئته في نظرها.

لشدة غيائه لم يشعر بنمو العلاقة بين زوجه وعبد المحسن. فبعد أن كانت هي تكتفى بوضع صينية الشاي وتختفى صارت تجلس معهما فيما هما يحتسيان الخمر والسجائر الملفوفة بالحشيش، تتفنن في إعداد المزة والأطعمة الشهية إكراماً لعبد المحسن. وبعد أن كانت تلبس الثياب المحشمة في وجوده صارت لا تستحي من لبس القمصان الخليعة التي تكشف مفاتن جسمها التي تجسدها، موحية لزوجها بأن عبد المحسن ليس غريباً، بل كانت تمنع في مداعبة زوجها أثناء انتشائه مداعبات جنسية صريحة كأنها تعلن اشتهاها لعبد المحسن الذي اعتاد -إمعاناً في جذب الثقة- أن يغص الطرف بحياء مصطنع. كان بارعاً في التسلل إلى المنطقة المحرمة دون مخاطرة على الإطلاق، براعة قاطع طريق يعرف كيف يلبد في حقول الذرة

تم التحميل من
مكتبي

وقتاً طويلاً للأنقضا في اللحظة المواتية فحينما كان حضرة الناظر يفرط في الشراب مفتعلاً حالة سُكر لم يكن هو يشرب الملعوب، إذ هو يعرف جيداً أن حضرة الناظر يختبر تصرفه حيال زوجه المتبرجة.. حينئذ كان يحسن التصرف، يفعل اللازم نحو إفاقة حضرة الناظر وهو في غاية من الثبات والتحفظ ساخراً من نظرات حضرة الناظر التي يختلسها بغتة فيجده جالساً في مكانه واضعاً ساقاً على ساق مطرقاً في الأرض بجدية شديدة فيما جلست سنيه بعيداً عاقدة ذراعيها حول صدرها. فما أن يسترد الناظر وعيه حتى يبادر هو بالانصراف في الحال مصراً على المضي وحده حتى الباب الخارجى كي لا يثير أية شبهة لدى حضرة الناظر.

الواقع أنه ضرب عصفورين بحجر واحد: أدخل الاطمئنان من ناحية على حضرة الناظر فأصبح يأتمنه على التواجد في منزله أثناء غيابه، وفي نفس الوقت أشعل اشتياق سنية التي ظنت أنه غير راغب فيها فأصبحت تتعمد إغراءه بشتى الوسائل، ربما لعدم خبرتها بالمثل القائل: «التقل صنعة».

من بين الهدايا التي قدمها لها عقد كالتحفة الفنية أهدته له بنت الباشا ليهديه إلى خطيبته في المستقبل، عبارة عن مجموعة من الودع - صدف البحر - الصغير الحجم، مشبوكة في بعضها بحلقات من الفضة، يتوسطها - على الصدر تماماً - رقعة من



الفضة فى حجم علبة الكبريت منقوش عليها آية الكرسي وسورة
يس بخط دقيق واضح. سُرَّت به سروراً عظيماً فلم تخلعه منذ
شبكة حضرة الناظر حول جيدها بيد مرتعشة.

فسرَّ حضرة الناظر سرَّ ولعها بهذا القرط تفسيراً شديداً
الخبث لم يسترح له عبد المحسن الذى كان يظن أن حبها للعقد
وإصرارها على لبسه حتى وهى تستحم راجع إلى حبها للعقد
نفسه كتحفة جميلة من ناحية، ولأنه من طرفه من ناحية أخرى.
إلا أن حضرة الناظر بعد ما شرب الكثير من الكؤوس ذات ليلة
علق ضاحكاً وهو ينظر إلى العقد المضىء على جيدها بأن
العلاقة بين زوجته وبين الودع قديمة وحميمة ولهذا فقد استقر
العقد فوق صدرها متسقاً مستريحاً كأنه عثر على بيته الأصلي.
لحظتها قال عبد المحسن فى براءة:

- «هل فى أهل الست أحد ممن يصطادون المحار بحثاً عن
اللؤلؤ؟ أنا سمعت من بنت الباشا أن هذا العقد شغل يدوى من
نساء الخليج العربى من المحار الذى يصطادوه أزواجهن بحثاً
عما فى داخله من اللؤلؤ؟ فاللؤلؤ يشتريه الأغنياء من أمثال نساء
الباشا! والمحار يشتريه غير القادرين لكن لجماله فإن الكثيرين
من القادرين يحبونه أكثر من اللؤلؤ! وهو جميل فعلاً! من يره
على صدر الست سنينة يتصور أنه بمليون جنيه!»
أسرعت هى قائلة فى تلقائية:

تم التعميد من
مكتبة
٢٩

- «هو عندي يساوى أكثر!»

ويبدو أن هذا الرد لم يعجب حضرة الناظر مع أن عبد المحسن قد فرح به وأشرق له وجهه، قال حضرة الناظر مجتهداً أن يكون سليم النية.

- «خل بالك معنى! أصل الحكاية أن سنية كان لها جدة حلبية

تضرب الودع وتشوف البخت وتقرأ الكف والفنجان!»

بهت عبد المحسن، فغر قاه ولزم الصمت متوقعاً كارثة تشعلها سنية لما بدا له إهانة وقعت عليها من حضرة الناظر حتى لو كانت غير مقصودة. تمثلت له جنة سنية امرأة غجرية تطوف القرى حاملة سقفاً مبطناً بالخيش منادية بلسان معوج «أضرب الودع واشوف البخت واشو... وف»، فإذا ما طلب إليها أحد أن تشوف له بخته حطت السقف وتربعت على الأرض، فأخرجت كيسة صغيرة ملأته بالرمل وبعض قطع من الودع، فبعد أن تعرف اسمه واسم أمه تروح تحط بإصبعها فى كومة الرمل وتشغل قطع الودع فى كفيها ثم تبدأ فى قراءة البخت على صاحبه.

توقع عبد المحسن أن تغضب سنية من التعرض بجذتها، لكنه فوجئ بوجهها وقد أشرق فجأة بمشاعل من الضوء الوردى كأن حضرة الناظر قد ذكرها بأعز أمجادها، تفجرت الضحكة المرححة على ثغرها بصوت صافى الرنين، قطمتها

مشوحة في وجه زوجها بذراعها البض المبروم:

- «يوه يا حضرة الناظر! إيش فكرك بالغالية؟ النبي أشرف
خليقة الله كانت عرافة بحق وحقيق! كان لنا بيت محندق وسط
عشش كفرة الجاز يمتلئ كل ليلة بالناس الذين جاؤا لجدتي من
كل بلد: عمدة ومشايخ وبكوات وباشوات تضرب لهم الودع
والرمل وتفتح الكتشينة والمندل وتقرأ الكف والفنجان! عشنا في
خيرها سنين طويلة! أصلها خالة أبي! تصور يا حضرة الناظر
أن أمي دار عليها خطاب من كل لون: أعيان وموظفون وتجار
وفلاحون وجدتي رأسها وألف سيف لا تزوجها إلا من دمها! لو
كانت اليوم على وش الدنيا ما رضيت بك زوجاً لي لو ثاقلتني
بالذهب! أنا كنت أحبها، أقعد أتفرج عليها بالساعات وهي
تشوف البخت! كانت تحب أن تعلمني الصنعة فتدّ على كل
سؤالاتي! تعلمت منها حاجات كثيرة! كنت أبص في عين البنى
أدم فأعرف ما يفكر فيه! وكنت أشعر بمجى الضيف من لحظة
ما يخرج من داره! وقبل أن تجي أنت لتخطبني رأيتك في المنام
راكباً بغلة وأبي يضعني أمامك على ظهر البغلة وأنا أصوت من
الخوف!».

ثم أكملت ضحكتها، فتحول وجهها وجيدها وكل ما ظهر من
جسمها إلى كئوس من عصير الورد يتدفق على كتفها صانعاً
هذا القميص الحريري الأحمر.

منذ تلك الليلة أصبح بينهما مفتاح مداعبة: كلما رآها على
انفراد فى لقاء عابر يهمس بلهجة ذات معنى:
- «متى تضربين الودع؟ نفسى أشوف بختى!»
فترد باسمه:

- «ارمى بياضك!»

فيمسك قلبه بيمناه هاتفا فى فحيح:

- «تفضلى! هو ذا بياضى!»

فتكتم ضحكة نزقة مغتبطة وتتقدمه داخله تاركة إياه يغلق
الباب، أو تلوح بيدها محييه وهى تغلق الباب خلفه. فى ليلة
فاجأته وهى تفتح له الباب:

- «قلت إنك تحب أن أشوف لك بختك؟!»

توقّف مأخوذاً:

- «فى عرضك!»

همست فى فحيح مبطن بالتحريض:

- «حضرة الناظر يسافر بكرة! الباشا كلمه بالتليفون وطلب

أن يروح الصعيد ليستلم حاجات من هناك! سيغيب يومين! ربما
ثلاثة! اتفقنا أن أسافر إلى طنطا لأقعد عند أمى ليفوت علىّ وهو
راجع ليأخذنى! لو قابلتنى وأن ماشية يمكن أن ندبر شوفان
البخت على رواقه!»

تكلمت كطفلة غريرة عابثة فأثارت حميته، شعلت شهوته

فارتبك في طريقه إلى الكنبه، على غير المنتظر جلست بجواره
على الكنبه المكسوة بالكرتون المشجر، أسندت كوعها الأيسر
على حافة المسند. بدوره أسند كوعه الأيمن على المسند. تقابل
الوجهان كأنما لأول مرة في حياتهما. نضجت العيون بسر كان
بينهما مطويا منذ شهور طويلة وها هو ذا ينفصح تماماً. عيناها
جورت نار ملتهبة يزغرد فيهما صوت لهيب الشبق الذي طال
كبته. أما هو فكان في شدة الارتباك والتوتر، شعر كأن جرأتها
هذه البادية في نظراتها ستؤدي بعد برهة إلى كارثة محققة.
ثداياها بارزان من تحت القميص كقرصين من عجين انفعصا
في بعضهما دون أن يضيع الخط الفاصل بينهما. تهدج الخوف
في صوته:

- «أين حضرة الناظر؟!»

شوّحت بذراعها البضة العارية إلى بعيد:

- «ركب الفرس إلى حوض البقمة يجمع أكلة خضراوات
طازجة للباشا ستأخذها معك! أوصاني أن أجعلك تنتظره هنا
فهو لن يتأخر!»

مطر بارد ينزل على ظهره، سرعان ما تبخر من حرارة دبت
في جسده. زام زومة أشبه بزئير أسد مكتوم:

- «أحب أن أشوف بختي الآن!»

واقترب منها قليلا. مدت يدها لتخلع القرط:

— «خذ وشوش الودع!»

أمسك بيدها:

— «لا تخلعيه! سأوشوش وهو في مكانه!»

مال على صدرها بأنفاس لاهثة، صار يلثم القرط حبة حبة يمرغ وجهه وأنفه في عجينة الثديين، سكراناً بنكهة الجسد الأنثوي المشدود. حبات الودع تشخشخ توشوش نفسها في صخب. أم هي فراحت تنتفض، تسند ذقنها فوق رأسه المتمرغ في صدرها ضاحكة في وجل. حلمة ثديها كانت منتصبية تحت شغاف القميص الوردى فأطبق عليها بشفتيه راح يمصها في نشوة عارمة، حينئذ تنأى إليهما صهيل الفرس، فارتدا عن بعضهما منفصلين مرتعدين، ثم انتفضت هي قائمة تعدل نفسها كدجاجة منتفشة الريش. ذهبت إلى الشباك المطل على الطريق الزراعي، ارتكنت بمرفقها على حافته مرسلةً بصرها إلى بعيد، حيث كانت سحابة من الغبار تتعاضم في هبوبها وقدمها على هيئة فرس تتقاذف في إيقاع راقص، ومن فوقها حضرة الناظر مرتدياً الجلباب السكروته السمنى، على رأسه قبعة من الخوص، ممسكاً بالجام في يد وبالكرباج في اليد الأخرى، ومن خلفه ثلاثة حمير محملة بأقفاص ملأنة بالخضراوات الطازجة يسوقها اثنان من التملية. كانت سنية تعرف أن حضرة الناظر سيقضى وقتاً طويلاً بعض الشيء حتى يصعد إليهما، فهو لا بد أن يدخل

إلى الحظيرة ليربط الفرس بنفسه، وينتظر حتى يفرغ التمليان ما فى الأقفاص من خضروات على حوض الطلمبة لغسلها جيداً ثم يعبأها فى صناديق من الكرتون.. لكن سنية أحبت أن يراها واقفة فى الشباك تنتظره كالعادة، وسوف تظل واقفة هكذا حتى يصعد إليها.

استرد عبد المحسن هدوءه وأشعل سيجارة مبططة مازكة البنثاني التى يغرم بها كسيده، أو التى أدمنها بحكم ما يختلعه منها من سجاجير سيده. لكن خياله كان متشتتاً، وجد نفسه يسأل سنية سؤالاً غريباً غير متوقع:

- «يعنى لم نرك حاملاً حتى الآن!! ألا ينوى حضرة الناظر أن ينبج منك؟!»

ضحكت ضحكة صاعقة. لوت رقبتها، سربت صوتها من فوق كتفها:

- «يريد طبعاً! المشكلة أن البذرة تقع منه قبلما تحصلنى!! ويقع هو بعدها يضرب رأسه بيديه! صعبان على حضرة الناظر هل تتصور؟! ما كان يصح أن يتزوجنى! إنما هى القسمة والنصيب!! المكتوب ما منه مهروب!»

أوشك أن ينطق: تاهت ولقيناها فدعك إذن من حضرة الناظر وتعال لتزوج الآن على سنة الله ورسوله لكنه بدلاً من أن يقول ذلك وجد نفسه يقول:

تم التحميل من
مكتبة
٧٥

- «شوفى لى بختى! شوفى بختنا معاً! أنا وشوشت الودع
بكل ما فى قلبى! والودع يوشوش صدرك كل لحظة!»

مدت كفها البضة المتختخة، ملست على حبات العقد. فى
الحال تلبستها شخصية جدتها العرافة الحلبية. انفرط لسانها
بنفس اللهجة الفجوية ذات الأصول البدوية العريقة، تتأكل فيها
حروف وتتفاخم أخرى، تتقلوظ حروف وتنضغم أخرى:

- «وحد الله! خطاويك رجل فى الجنة ورجل فى النار قول يا
ستار!.. السعد والوعد قدامك ما فى منهم حد خدامك ما فى غير
المولى الكريم يمسك لجامك فى قعدتك وفى قيامك فى نظرتك
وفى سلامك قول ربنا ينور السكه قدامك!.. قلبك مشعل نار
والحبيب قادر يجيك لحد الدار بس يا خسارة لانت ولا الحبيب
أحرار!.. مكتوب على جبينك الفرخ والجرح لاتنين سوا!.. واحد
يهكم أمره يفديك بعمره يا ترى مين هو؟!.. وفى النهاية كل شئ
بيد الله ما حد يقدر يرد قضاه قول يا كريم!»

مع كل عبارة من هذه العبارات كانت كفها لا تنى تتحسس
حبات الودع على جيدها كأنها تغترف الكلام من ثديها وتلقى به
فى وجهه. وكانت جادة متجهمه بصورة أفزعته حتى لقد تحيل
أن جنياً تلبسها فاستطالت قامتها وضويف ظلها.

استمع إليها فى إمعان شديد، هازلاً فى أول الأمر لكن
العبارات لمست شعيرات قلبه من الداخل فارتعد ودرأاً للخوف

الغامض أطلق ضحكة عالية جهد ليجعلها مازحة. ثم أشرق موعد الغد في رأسه فانتشى: يالها من فرصة العمر، فلسوف ينفرد بها لتشوف له بخته على الحقيقة، سوف يأخذها إلى شاليه الباشا على شاطئ العجمى فى الإسكندرية يقضى معها يوماً بى ليلة. لكنه ما لبث حتى ضرب رأسه بكفه فى حنق وغضب، إذ تذكر أنه بعد قليل سيعود إلى الباشا ليملكث معه حتى نهاية الأسبوع. هل تضيع منه فرصة العمر بهذه السهولة؟ لا، لن يتركها تضيع أبداً، فمن حقه أن يتغيب عن الباشا يوماً أو يومين بعد كل هذه المثابرة على الدقة فى المواعيد. لسوف يكذب على الباشا لأول مرة فى حياته، كذبة تقوت ولا أحد يموت، ولكن أية كذبة يا ترى يمكن أن تدخل على الباشا فيصدقها فيقبل إعطاءه اجازةً ليوم أو يومين؟ بس، لقد وجدها، لا كذبة غيرها تصلح للخروج من هذه الورطة: سيمر على سنترال طنطا فى طريقه إلى القاهرة، من مكتب البرق يرسل برقية إلى نفسه بتوقيع أخيه يقول فيها: إحضر حالاً أمك فى خطر، يستحسن أن يشطب كلمة فى خطر فإن الباشا قد يتصل بسرارى التفتيش ليسأل عن مدى الخطورة فينكشف الأمر، أما لو كتبت توفيت فإن الباشا لن يجد مجالاً للاعتراض وسيعتهقه، ومن السهل عليه بعد الاجازة أن يشكر الباشا ويخبره أن أمه تجاوزت الأزمة ودبت فيها الروح ثانية.

حين سمع خطوات حضرة الناظر تصعد على السلم همس
بسنية:

« سأقنع حضرة الناظر بأن يدعنى أخذك الآن لأوصلك
بالسيارة إلى بيتكم فى طريقى للقاهرة! وغداً فى الضحى
تنتظرينى على محطة طنطا لنذهب معاً مشواراً صغيراً أفسحك
وأريك الدنيا! ماشى؟! »
أومات برأسها موافقة..

حسبها حضرة الناظر على النحو التالى: أن تسافر زوجه فى
سيارة ملاكى معززة مكرمة بسائق الباشا نفسه أفضل من
سفرها بركوبة يسوقها تملّى جربان، منظر يشرفه فى نظر
أهلها، ثم إن عبد المحسن حسب مواعده مع الباشا- وبالأخص
لأنه يحمل خضراوات طازجة- لابد أن سرع فى مشواره أى أنه
لا وقت لديه للمرقعة فى الطريق. وهكذا ملس بكفه التخينة على
كرشة البارز معبرا عن رضائه الشديد بهذا الاقتراح الوجيه، ثم
أمر زوجه بأن تلبس هدومها.

على غير العادة سأل الباشا باهتمام شديد عن أخبار أهله،
وكان مبتهجا وفى غاية الرقة والإشفاق. هدته فطنته إلى القول
بأنه قلقان بعض الشيء إذ ترك أمه فى حال سيئة من المرض،
فإذا بالإشفاق يطل من عينيّ الباشا، وإذا به ينهض فيحتضنه
فى حرارة يربّت على ظهره بأبوة حانية، ثم يشد على يده:

- «معلش يا بنى! هذا حال الدنيا! شد حيلك!»

ثم يسحب برقية من تحت الجرتان:

- «جاعتك هذه منذ عشر دقائق!»

ومد يده فى جيبه، أخرجها برزمة من النقود، انتقى منها

خمس ورقات بعشرة، غمره بها فى يده:

- «اتكل على الله بسرعة! ربنا معاك!»

فى طريق عودته إلى البلدة لعبت به النشوة فرفع صوت

مذياع السيارة على أغنية محمد عبد المطلب: يا بو العيون

السود يالى جالك زين.. ميتى الوداد يعود وتنول مناها العين

يخيل اليه أن الأغنية تنطق بلسانه. ها هى ذى الحيلة قد نجحت

بأكثر مما يتوقع، لسوف يقضى ليلتين من لياالى العمر على نفقة

الباشا فخمسون جنيهاً ليست بالقليل، يستطيع أن يشتري بها

بيتاً كاملاً لكن ليلة واحدة مع سنية تساوى الدنيا وما فيها فخير

له الآن أن يبعد ذهنه عن شاليه الباشا ويستأجر شقة ليلتين.

فكرة طيبة أن يمر الآن على سنية -فحص على الخط- ليؤكد لها

موعد الغد من ناحية، ومن ناحية أخرى يساعدها على التفكير

فى تدبير حيلة تطمئن أمها على غيابتها ليلة أو ليلتين بحيث لا

تستريب الأم فى شئ.

ما لم يكن يخطر على باله أبداً أنه بمجرد ركوبه السيارة

شعر الباشا بحزن شديد جداً لما أصاب سائقه حارسه صفيه.

شعر أن إعطائه خمسين جنيهًا أمراً ليس كافياً للمشاركة في مصاب كهذا، شعر بكثير من تأنيب الضمير، فد «الولد» لم يقصر في خدمته أبداً، ويفديه بحياته، يمنحه الأمن والاطمئنان يخلص له في كل شيء، فكيف به يتركه وحده في محنة كهذه؟..

وهكذا أمسك بسماعة الهاتف وطلب سراي التفتيش في ظهر الجمل لم يكن ثمة أحد في السراي، فحضرة الناظر بعد انصراف زوجه طقت في رأسه فكرة مبهجة: إنه منذ تزوج من سنية لم يعرف للجماع لذة على الإطلاق على عكس ما كان يتوقع من فرط جمالها الذي أصابه بلوثة، ما من مرة ضاجعها واكتمل اللقاء على النحو المرجو، إما أن يتخاذل إلى الرقاد كمدأ وإما أن يسقط لاهثاً قبل الوصول وليس من تفسير لذلك سوى أن زوجه السابقة قد عملت له عملاً من السحر يربطه عن سنية. عندئذ شعر باشتياق شديد لزوجه أم العيال، تذكر بكثير من الزهو أنه لم يفشل معها مرة واحدة بل كان دائماً أبداً في أشد انتصاب وقوة: تجمع القرار في رأسه حاسماً باتاً لا رجعة فيه: لسوف يركب من فوره إلى زوجه السابقة ليبيت في سريرها هذه الليلة ومن عندها يتوجه صباحاً إلى الصعيد، إنه لابد أن يفعل ليتأكد مما إذا كان قد اعتراه مؤخراً مصيبة حلت به إلى الأبد أم أنها ربطة عابرة مصيرها إلى انفكاك؟.. قام التملّي بتوصيله بالفرس إلى محطة نشرت، ومنها ركب القطار إلى بلدة

زوجه متمثلاً حلاوة المفاجأة التي سيفجرها حضوره غير المرتقب.

توصيلة الهاتف في شقته السكنية في الطابق الثانى ولكن .
الجهاز الأم موجود فى المكتب المفتوح على الدوام ويسمى بالديوان، حيث يجلس أكثر من تملّى وأكثر من خفير. وكان الخفير محمد سعد هو الجالس القرفصاء على مصطبة تحت ظل الصفصافة المواجهة اندفع مهرولاً إلى الديوان، رفع السماعه، ضرب سلام التعظيم حين سمع صوت الباشا:

- «أنا الخفير محمد سعد يا سعادة الباشا! حضرة الناظر سافر الصعيد يا سعادة الباشا! حرم الناظر سافرت لأهلها ياسعادة الباشا! إيه؟! إنا لله وإنا إليه راجعون! شفتها صباح اليوم فلا حول ولا قوة إلا بالله!»

أخذ شاربه الكثيف الرخو يتراقص على شفتيه فيما هو يردد: حاضر يا سعادة الباشا! حاضر يا سعادة الباشا! ثم وضع السماعه وانطلق من فوره خبُّ فى جلبابه الكتان الواسع الذيل ينقر الأرض بطرف نبوته إلى دار عبد المحسن جاد الله. الباب كان مفتوحاً، وأم عبد المحسن تحاول تبين الفراخ فى أخاناه وعششه، تنقضُّ على الدجاجة الشاردة بخفة وخبرة فتمسكها من أرجلها، تطارد الأرانب الشقية. وحينما زحف ظل الخفير محمد سعد على حوش الدار غير المسقوف وضعت كفها

كمظلة على عينيها وجعلت تتمعن فيه مستطلعة سر مجيئه..

- «سا الخير يا ام عبد المحسن!»

- «يسعد مساك يا ابو سعد!»

- «البقية فى حياتك! شدى حيلك!»

صرخت ضاربة صدرها بكفها مذعورة وقد هجت كل الدماء

من جسدها. راحت تولول

- «يا مصبتي! فى مين يا بوسعد؟!»

- «فيكى يا وليه!!»

- «أنت اتجننت يارجل انت؟ إمشى جاك مشش فى ركبك

راجل قليل الحيا!»

- «يا وليه طولى بالك! سعادة الباشا كلمنى الآن فى التلافون

وعزاني فيكى! التليغراف وصل لعبد المحسن بموتك خد فى

وشه وطار وزمانه فى السكه! لكن سعادة الباشا الله يستبره

حيعمل الواجب على أصله! كلفنى أصلح الحته اللى قدام داركم

عشان ينصب فيها المعزى! حبيعت بتوع الفراشة بينوا الصوان

ويرصوا فيها الكراسى المدهب! وحبيعت فقى محترم من بتوع

مصر يقرأ عليكى ربعين محترمين! وهو بنفسه حيشرف المعزى

بالحضور! عايزه تنهبي يا وليه يالى مانتش وش نعمه؟!»

كادت الوليه تسقط من طولها:

- «قال الله ولا فالك يا غراب البين! إنت راجل ما بتشوفش

مفيش فى مخك ريحة العقل؟ أن واقفه قدامك أهه باكلمك ابقى
مت ازاي وتعملولى معزى كمان؟!»

- «يا وليه سيبك من الكلام ده! سعادة الباشا قال إنك مُتى!
تبقى مُتى! محدش يقدر يقول للباشا أنت كذاب! محدش حيفهم
ولا يعرف أحسن من الباشا!!،

- «لا حول لا قوة إلا بالله! اللهم اجعله خير إنت عايز منى
إيه؟»

- «عايز أبلغ عبد المحسن واخوه رسالة الباشا عشان
يكونوا مستعدين وعشان يشوفوا نفرين يشيلوا السباخ من هنا
عشان الصوان بتاع المعزى حيتتصب هنا!!»
- «إنشالله انت! إنشالله انت!! إمشى من هنا! إياك تعمل
أى حاجة هنا!»

شوّح لها بعصبية شديدة وغضب أشد:
- «المعزى حنتعمل يعنى حنتعمل! وهنا! أوامر سعادة
الباشا لازم تتنفذ بالحرف! هى لعبة؟»

تركها ومضى يخب فى جلبابه الواسع الذيل..
حين عاد عبد المحسن بعد منتصف الليل، وبعد طول مرقعة
فى استراحات الطريق، وجد مساحة الشارع أمام دارهم معبدة،
والأنفار قد انتهوا من رشها بقليل من الرمل. التقاه الخفير
محمد سعد عند شجرة الصفصاف أمام الديوان، أخبره بكل

شيء. تلقى الصدمة العنيفة بصلابة المذهول الفاقد لوعيه. لم يرد، توجه إلى أمه التي انكفأت على نفسها في حجرة الفرن تبكي وأخوه يطيب خاطرهما. بكلمات متقطعة لا هتة متخبطة أفهم أمه أن في الأمر مكيدة فعلها أحدهم، وأن الصباح رباح ولسوف يعالج الأمر بإذن الله.

لكنه حين أغلق على نفسه حجرة المقعد راح يعصر ذهنه في إيجاد محاولة للخلاص من المأزق لم يتوصل إلى أى حل، وجد نفسه محاصراً تماماً. كل شاغله الحقيقي هو «ثقة الباشا» فيه وكيف تزعزعت وسقطت. لم يكن يعرف أن الباشا يحبه ويحترمه إلى هذا الحد، لدرجة أن يقيم المعزى على نفقته ويشرفه بالحضور بنفسه تمنى لو أن أمه قد ماتت بالفعل وأقيمت لها هذه الليلة المهيبة بمقرىء من القاهرة وسرادق، فأى مهابة كان سيحصل عليها بعد ذلك في نظر الناس؟ أما الآن فإن الأمر سيتحول إلى نكته سخيفة بشعة، بل هي الفضيحة الكبرى، سيتعرض الباشا بسببها لكثير من اللوم والسخرية: كيف تثق في قاطع طريق صايع لا أصل له؟ ها هو ذا قد هذا بك وصغرك! هل يوثق في هذا الصنف من حثالة البشر؟ عوضك على الله في حبك واحترامك له، الحمد لله أن كشفه أمامك على حقيقته قبل أن يوقعك في مصيبة أكبر.. إلخ.. إلخ.

شاطت كل أعصاب عبد المحسن. أيقن أنه تصرف بغباء كما

لو كان يظن أن الباشا يقيم فى قارة أخرى ولن يصل إليه الخبر الحقيقى؟ كيف توهم أن الباشا يقيم الحواجز بينه وبين العاملين فى معيته؟ أه لو أن الباشا حقق فى أمر البرقية وعرف أنه هو الذى أرسلها وأن موظف المكتب تواطأ معه نظير رشوة صغيرة! هل يعود هو إلى شغل الليل وقطع الطريق بعد كل هذه الأملّة؟..

تعب من التفكير، من تأنيب النفس، من البكاء، تمنى أن لا يطلع الصبح بعد أن كان منذ قليل يستعجل طلوعه...
إلا أن الصبح طلع رغم أنفه دون أن يراه، ربما أثناء غفوة خاطفة انحنى لها رأسه على صدره فما أن فتح عينيه فجأة حتى رأى الضحى العالى يفضح كل شئ. سمع لغطاً وزعيقاً حاداً مبرز فيه صوت أخيه وصوت الخفير محمد سعد وسط رهط من أصوات بندرية طلقة حاسمة.

فى قفرتين اثنتين هبط درجات السلم الطينى إلى حوش الدار منه مباشرة إلى الخلاء، ليفاجأ بأن الدنيا قد تغيرت، أمطرت السماء أطفالاً وصبياناً ورجالاً. شياطين الفراشة المدربون ذوو الأجساد المربربة المبرومة قد انتهوا من دق العواميد فى الأرض، يتسلقون درجات سلم خشبى متنقل، ينهمكون فى طرح أقمشة السراشق على الأعمدة والحوامل غير مكترثين بأى شئ مما يدور حولهم، لقد جاعوا فى مهمة محددة

قبضوا عليها أجراً لأبد من تنفيذها سواء رضى أهل الدار أو خبطوا رءوسهم فى الحائط، تلال من الكراسى مرصوفة فوق بعضها استعداداً لصفها، الدكة التى سيجلس عليها الفقيه وميكروفون أيضاً؟ ما كل هذه الأملة؟!...

وقف ساكناً صامتاً فاغر الفم كتلميذ أتى ذنباً لا يفتقر، ليس يدرى ما ينبغى عليه أن يفعله الآن، لقد كذب على الباشا كذبة فاضحة ولم يعد مستعداً للوقوف ضد إرادة الباشا أو حتى الاعتراض بأى شكل.

كمن ماتت أمه بالفعل عجزت ساقاه عن حمله فهوى على الأرض متقرفصاً مسنداً ظهره للحائط تملأ الدموع الكثيفة عينيه وحلقه، لحظتها -شأن الفلاحين دائماً فى مثل هذه اللحظات- جاء من جلس بجواره صامتاً حزيناً، جاء من يواسيه، ورغم أن أمه كانت قد جعلت تروح وتجي فى حوش الدار مخطوفة اللون تتفرج على ما يحدث، فإن أكثر من واحد جاء وسلم عليه وربت على ظهره قائلاً:

«شد حيلك! أدى حال الدنيا! خلفت لك طول العمر!»

العجيب أنه يتقى كل ذلك بحزن حقيقى، يرد على كل من يواسيه ردود من يتلقى العزاء فعلاً. شلَّ عقله تماماً، لم يعد يشغله سوى اللحظة التى ستقع فيها عينه على عين الباشا، تمنى أن تقوم القيامة لتذهل الجمع حتى لا يتم حدوث ما يحدث.

إلا أن كل شيء تم على خير ما يرام فى وقت قليل. انتصب السرداق فخماً مبهجاً وامتلات أعمدته بالفوانيس الملونة كما ارتصت الكراسى فى عدة صفوف متقابلة، بدأ العمال يجربون الميكروفون الذى أدير بواسطة ماكينة لتوليد الكهرباء تتكثرت بصوت عال. امتلأ الفضاء ببوق سيارة قادمة، فهبت أسراب الأطفال فى استقبالها بصياح كبير، سرعان ما توقفت على مقربة من السرداق ونزل منها شيخان معلمان فى غاية من الفخامة والأبهة فاقتادهما بعض الرجال إلى مكانهما فى السرداق. ثم فوجئ عبد المحسن برجال كثيرين من خدم الباشا وخفرائه قد أتوا إليه فى جلسته، فنهض لاستقبالهم مسلوب اللب، سلم عليهم، ردد العبارات التلقائية التقليدية:

— «سعيكم مشكوراً! سعيكم مشكوراً!»

ثم تبين أنه يجب أن يظل واقفاً فى فتحة السرداق لأن طوائف من الناس قد بدأت تتوافد مخترقة الطريق نحوه مباشرة لتحضنه..

على أن المفاجأة التى صعقته حقاً هى ظهور أمه فى حوش الدار مقبلة نحو السرداق، وقد ارتدت جلابيتها القطيفة السوداء وتلفعت بالطرحة البيضاء، تحمل صينية نحاسية ترتعد فوقها فناجين القهوة. مادت به الأرض، تطوح، تعثر، استقام مترنحاً وهو ينسلت من دائرة المحيطين به متجهاً فى غضب نحو أمه

ليدركها قبل خروجها من حوش الدار. سدَّ عليها فتحة الباب،
دفعها إلى الداخل برفق يتنحج بحثاً عن صوته الضائع، همس
لها بفحيح يائس مهزوم:

— «لا داعي للفضايح يا أم! كفى! بعد دقيقة واحدة تجيئني
نقطة!»

فوجيء بأنها تبتسم، بل مشرقة الوجه مبتهجة كأنها عروس
في ليلة زفافها. بكتفها أزاحت في دلٍّ وخفر بحركة تشي بكثير
من المرح:

— «إبعد عني! يجب أن أرحب بضيوفى! هم ضيوفى أنا! كل
هؤلاء الناس جاءوا للبكاء على! للعزاء فى! أقل واجب أن أقدم
لهم التحية!! ولكن مالك حزين هكذا كأنى مت فعلاً؟! أنا والله
فرحانة فما رأيك؟! وطربة المرحوم الغالى فرحانة كأنى عروس!
ما كنت أظن أنى عزيزة على هؤلاء الناس كلهم! هل يشوف
الواحد هذا الفرح المعمول له ولا يفرح؟ هذا يكون بطراً بالنعمة!
وسّع لى كى أقدم لهم القهوة بنفسى! والله لو كنت أعلم أن
جنازتى سيحضرها باشوات وبهوات لمت من الآن إكراماً
لخاطرهم! يا عالم إن كنت سأشهد هذه الجنازة يوم موتى
الفعلى أم لا!! وسّع وسّع!»

فيما هو يفكر فى وسيلة يمنعها بها من الخروج ارتفع اللفظ
وتموجت الظلال وامتلات الأرض بالحركة، رددت أصوات:

الباشا وصل! الباشا وصل! عندئذ تركها رغماً عنه، ارتدّ مندفعاً إلى الخلاء باحثاً عن سيارة الباشا، لمحها واقفة لتوها أمام خط شجر الصفصاف المحاذى للدور.

نزل الباشا وحوله رهط من الرجال، أقبلوا يتقدمهم هو نحو السرادق في خطو مهيب جداً، فإذا بزغردة رنانة تطير في الهواء محلقة نشوانة صافية. ارتفعت أعين الرجال في استنكار، غادرت العيون محاجرهما خلف اصداء الزغردة، تعانقت مع الزغردة التالية، فالرابعة. كان عبد المحسن وهو يحتضن الباشا في حرارة ويدفن رأسه في صدره باكياً، يفكر في عبارات مؤثرة يطلب بها عفو الباشا وغفرانه، لكنه كان يشعر بالخل حتى النخاع سيّماً وقد تبين أن أمه هي التي أطلقت الزغردة في استقبال الباشا كأنما لتزيد الطين بلة لتغرقه هو في مزيد من الأوجال.

دفعه الباشا برفق وحنان إلى السرادق، حيث سلم على الجميع فرداً فرداً، ثم اتخذ مجلسه في الداخل بجوار المقرئين، ليفاجأ بعد قليل بسيدة عجوز صلبة القامة مشدودة الحيل ترتدى جلباباً من القطيفة السوداء وتلفع رأسها بطرحة بيضاء، ممسكة بصينية عليها فناجين القهوة، ومن خلفها شاب صغير يحمل إبريق القهوة وإبريق الماء. مرت على الجميع واحداً واحداً تعرض القهوة. بعضهم شكرها بحركة رقيقة من يده يبعد بها

الصينية فى حزن متقن الصنع بإحكام، بعضهم الآخر شكرها وأخذ فنجاناً، حتى إذا ما وصلت إلى الباشا خلصت يmanها ولفتها فى الطرحة وسلمت عليه بقوة كأعتى الرجال:

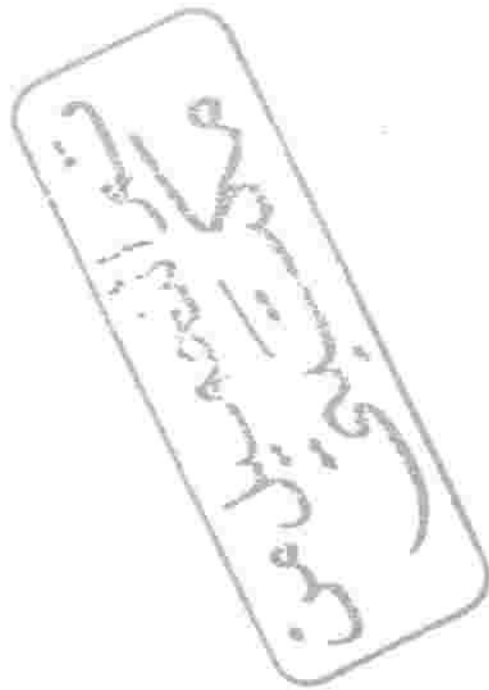
- « نورت بلدتنا يا باشا! منجيكش فى مكروه أبداً! إلهى ربنا يفتحها فى وجهك دنيا وآخره! الله يجبر بخاطرك يعطيك طول العمر! »

ثم مضت فى خطو ثابت حتى اختفت داخلة للدار..
ران على السرادق صمت رهيب استمر برهة طويلة قطعها المقرئ الذى اعتدل فى قعدته وانعدلت أمام شفتيه سماعة الميكروفون، حين لعلت فى حوش الدار عبارات: «كل نفس ذائقة الموت»، «ويا أيتها النفس المطمئنة ارجعى إلى ربك راضية مرضية»، كانت أم عبد المحسن متربعة على المصطبة فى قاعة الفرن التى تنام فيها، فأخذت تلهج فى ابتهاج وغبطة:
- «يا حلاوة! دهده دهده! إيه الأمله دى كلها يا جا الخالق يابنت ست الدار! اللهم لك ألف حمد وألف شكر! شفت معزتى بعينى! شفت خرجتى!»

كانت وحدها فى القاعة، ربما فى الدار كلها، ربما فى الكون كله، فاستلقت على الأرض متمددة تنصت فى استمتاع شديد إلى صوت المقرئ الذى سحرها جماله وجمال القرآن.
بعد الربع الثالث نهض الباشا فودع الجميع ثم انصرف.

بعده بقليل انصرف المقرآن معاً، ثم بقية الرجال. وفيما كان العمال يفكون السرادق تناهى إلى أسماعهم ضوت صرخة عليّة أطلقها شاب مرتاع: تعاليلي يا أمه. نظر عبد المحسن تلقائياً في حوش الدار فرأى أخاه يلطم خديه مشيراً إلى قاعة الفرن. اندفع يجرى، اقتحم القاعة ومن خلفه بعض الرجال. رأى أمه ممددة على الأرض بلا حراك. انكفاً عليها يهزها يناديها، لكن لا حياة لمن تنادى. كانت جاحظة العينين، على شففتيها بسمة عريضة شاحبة، كأنها تتطلع إلى كل ما حدث بنظرة وديعة راضية.





قلب الشجرة

شَوْح أبى فى وجه أمى بذراعين معروقتين كفرعى سنط
انحسر عنهما كُم الجلباب الواسع، ثم أمسك طوق جلبابه بيديه
وهزه علامة على أنه يوشك أن يشق الهدوم من فرط الحنق
والفيظ - وهى حركة يفعلها دائماً كلما استشيط ليقمع بها
غضبه.. ثم صاح بصوت دافىء حريف:

- «سبحان الله فى طبعك! إنت يا وليه غاوية نكد؟!

يصعب عليك نفرح ولو ساعة واحدة فى العمر؟!

داهية تسم بدنك!!»

لحظتها كانت أمى متربعة على الأرض فى حوش الدار،
ساندة كوعها الأيسر فوق ركبتيها المرفوعة، بنفس الثوب الجديد
الذى كانت ترتديه فى فرح أختى ونيسه منذ ساعات قليلة،
مريحة خدها على راحة يدها، مرسلة بصددها إلى الشجرة
الواقفة أمامها قرب باب الزريبة وعتبة منح الجمل. الدموع تنهمر
من عينيها دافقة بغزارة كرخات المطر، وقد انتشر على وجهها
فزع ورعب، فبدأ كأنها تتوقع خطراً داهماً كهول يوم القيامة ما
يلبث حتى يكتسح الدار كلها بل الكون كله. جُمدها الهول
المجهول فى مكانها فبدت كأنها شُلَّت، تريد أن ترفع بالصوت
أن تهيل التراب على رأسها تستغيث غير أنها لا تستطيع.. مما
جعل فئران الدنيا كلها تلعب فى عب أبى..

كنت واقفاً بينهما وقد شملنى الرعب من منظر أُمى الذى لم أعرف له سبباً. من فرط الرعب ركزت البصر على أبى لعلى أتكشف شيئاً حدث بينهما قبل الآن وأدى إلى هذه الحالة التى وصلت أُمى إليها وأصدقاء فرح أختى ونيسة لم تختف بعد من دارنا. رأيت مشروع البسمة الذى يبرز دائماً على شفתי أبى كحركة مكملية لحركة شق الهدوم الوهمية، فحقق قلبى بشدة إذ أرى الابتسامة قد وأدت فى الحال وها هى ذى روحها المفلوطة تخلف على الشفتين رعشة شاحبة كخفق جناحى الدجاجة الذبيحة حين تستسلم راقدة تحت النزيف. أبى إذن لم يكن أساء إليها من ورائنا، كما أننا لم نسمع أى عراك بينهما طوال شهر الإعداد للفرح. قد فتشت فى ذاكرتى فلم أذكر أن أُمى تخانقت هذه الأيام مع زوجة عمى بسبب زحف سطح دارهم على سطح دارنا، وبائع العسل ذو الكلام الصعيدى القارص أخذ بقية حسابه منذ جمعيتين، ولم يبلغنا أن إحدى الدجاجات العتاقى ماتت، أو أن دكر البط اختفى، أو أن صرة فلوسها ضاعت فى سوق البلد..

- «مالك يامرّه؟!»

هكذا صاح أبى بلهجة ودودة. لكن أُمى من شدة الانفعال والانخراط فى البكاء العميق لم تستطع النطق، بل يمعن وجهها المدور فى الاحتقان حتى صار مثل كرة من اللهب الأحمر

تتساقط منه قطرات ملتهبة. صرخ أبى بلهجة أمرة:

- «مالك يامرّه؟! انطقى يا بنت الفرطوس!»

انفجرت أنا باكياً وقد استشعرت خطر مأساة غامضة
مجهولة سينزاح عنها الستار بعد برهة. لحظتُ أنى من
رفع ذراعها والإشارة بأصبعها إلى الأمام، فنظر أبى ونظرت
حيث أشارت، فلم نجد شيئاً، رددنا البصر إليها فى توسل.
صارت تركّز شفّتيها المزمومتين المرتعشتين:

- «ال.. شج.. شج.. شج.. شج.. شجرة!!»

اكتملت الكلمة بطلوع الروح. لكن أبى التقطها من أول حرف،
فشوح فى وجهه مولولاً كالنسوان:

- «تانى! الشجرة برضة! مالكيش شغلة ولا مشغلة غير
الشجرة؟! قُطعت الشجرة وشورتها السوده! أيمان المسلمين
انتى مره مخلولة فى عقلك! تعال يا ابنى سبها تفضى اللى فى
دماغها كله! العبارة أنا عارف سببها!!»

سحبنى من ذراعى لنجلس تحت ظل الشجرة نفسها بحذاء
السور، جلسة أبى المفضلة، حتى أن الجوال مفروش وعدة
الشاي والقُلة والجوزة والقوالح الناشفة متناثرة حوله دائماً، مع
مسند من الخيش المحشوبقش الأرز. تناول أبى منقذ النار
صار -كنوع من التنكيل المتعمد بحزن أمى- يفتش عن بقايا
الجمرات ليغذيها بالقوالح، قال:

– «اغسل براد الشاي يا ولد»

كنت ميالاً لم يود أن يفعله الآن، فلقعة الشاي هذه سر باتع
فى إذابة الهموم. ثم إن قولة أبى إنه يعرف سر العبارة قد خفف
عنى حمل الهم قليلاً. تذكرت فى الحال أن دُخلة أختى ونيسه لم
يمض عليها يوم كامل، وها هى ذى الحناء تخضب راحتى
وأصابع قدمى، وبقايا كعك الفرخ فى سيالتي، وفوق رأسى
طاقية جديدة من الطواقي والمناديل التى وزعتها أختى ونيسه
على الذين صَبَحُوا عليها اليوم فى الصباحية كل واحد بمبلغ من
المال.. فلا بد أن تكون أُمى حزينة على فراق أختى ونيسة، مثلما
حزنت على فراق أخواتى تفيده ومريم وحميده، إذ ما يكاد فرخ
الواحدة منهن ينتهى حتى تشعر أُمى أن الدار قد خلت منها
فتنزوى فى ركنها هذا وتنخرط فى بكاء صامت لمدة دقائق
طويلة، إلا أنه ليس كهذا البكاء الذى تبكيه الآن بحرقة، كان
بكاؤها فيما مضى جميلاً، إذ تبكى فيما الجبين مضى والوجه
مبتسم مشرق، بل قد يؤوب البكاء إلى زغردة مفاجئة أو ربما
تستأنف الغناء بالجفان كما كانت تفعل وهى تعد عشاء العروس،
تنقى الأرز الذى ستطبخه، تغسل القمح الذى ستخبز منه كعك
الفرخ، تفرج الجيران على أثواب القماش قبل تسليمه للخياطة.
أبدا لم تكن مرتعبة هكذا وكأنها تسترحم عزرائيل الموت الذى
جاء يتبغى أبناءها..

- «هات القلة يا ولد وفتح عينيك احسن اقوم الطّش لك انت وامك واخليها نكد بحق وحقيق!» فأيقنت أنه غير جاد في الهزء بحالتها، وأن همه بما هي فيه أشد من همها بما هي فيه. وحتى بعد أن طاب الشاي وصبه أبى فى الكوب وبدأ يرشف لم يكمل الرشفة الأولى، إذ أعاد كوبه الزنك الصغيرة وصب الشاي فى كوبة ثانية وتركها أمامه برهة تردد خلالها منقلأً البصر بين الكوبة وبين أمى فى ركنها المبتعد، ملامح وجهه تسعى جاهدة إلى الانبساط ليقول لها بلهجة طبيعية: «الشاي يا مره». إلا أنه اكتفى بإزاحة الكوبة نحوها ناظراً لى نظرة ذات معنى. حملت الكوبة ذهبى بها إلى أمى حيث وضعتها أمامها وانتهزت الفرصة فتمعنّت فى وجهها باحثاً عن البكاء القديم فلم أجد سوى الرعب مجسداً فى عينيها لحد الذهول. كان بصرها مركزاً على جذع الشجرة لدرجة أننى أيقنت أنها لم ترنى بل ولم تسمعنى حين قلت لها وأنا على شفا البكاء: الشاي يا امه. لكننى خفت من أبى فاستدرت عائداً إليه، لأجده قد وضع قولحة مشتعلة فوق حجر الجوزة وراح يجذب الأنفاس فى توتر كظيم. جلست متكوراً، فرمقنى بنظرة عابسة أتبعها بصيحة كأنها الزغدة:

- «اقعد كويس! ربّع رجلك وخليك راجل محترم!»
اعتدلت فى الحال كما قال، صب لى قدحاً صغيراً من الشاي

فى كوبة ثالثة مبتورة الأذن، أزاها نحوى، تمللت فى قعدتى
على سبيل التحية والشكر له، وتركتها أمامى لأطيل عمر الفرح
بها..

جعل أبى يسحب أنفاس الدخان فى بطاء وتؤده، متصنعاً عدم
المبالاة مع أننى صرت عاجزاً عن ملاحقة نظراته التى يوجهها
إلى أمى فى صمت وترقب. أخيراً اعتدل فى قعدته رافعاً ركبته
ناظراً لى، فشعرت أنه يكاد يعزم علىّ بالجوزه بل أن يده شرعت
تمتد بها نحوى ربما لاعتياده تسليمها لمن بجواره بعد بضعة
أنفاس.. ثم راح يتكلم:

- «الوليه دى شايله الشجرة على دمغها!! هى اللى

شارت علينا بزرعها! وهى الى شارت علينا بقطع فرعها!
وهى اللى رجعت ندمت على الفرع المقطوع!! يا ترى
الشجرة دلوقتى عيانه؟! نوديتها الاستباليه؟! أنا مستعد أجيب لها
الحكيم لحد هنا ولا تعمليش فى روحك كده!!!

أيمان المسلمين المره بنت الكلب دى لو جابوا لها خبرى
على نقالة ما تقطع فى نفسها كده!! وتقول لى الشجرة؟! دى
مسله متخيطش يا مره شوفى مسله غيرها لها خرم
يدخل منه الخيط!!»

واستأنف شدّ الأنفاس فى سأم، مع أن نار الحجر قد
انطفأت واحترق التبغ. وكانت الشجرة التى نقعد فوق ظلها الآن

قد صارت أمام عيني كأننى بعيد عنها أراها كلها فرعاً فرعاً وورقة ورقة. كان ذلك منذ حوالى سبع سنوات مضت حينما كنت فى حوالى السادسة من عمرى، وقد التم جمع كبير حولها يغطون يتصايحون: ثمة من يقترح ومن يعترض ومن يوافق ومن سخر ومن يستخسر؟: شجرة جميل بارك الله فيها فى سنوات قليلة فجاعت ضخمة جارمة الأطراف عالية الهامة مكتنزة الجذع بالعضلات البارزة وكتل اللحم مكسوة بجلد من اللحاء الخشن المنظر رغم نعومته ممتدة الجذور على مساحة عريضة تبدو جذورها كالعروق النافرة كشبكة من الخراطيم تحاصر الأرض من حولها كالأخطبوط، مما جعل أبى يكثر من النظر إليها بإعجاب، ثم كأنه يذب عنها عين الحسود المجهول يقول ساخراً: - «أقطع دراعى إن ما كانت الأرض دى أصلها جبانة!»

فتصيح أمى مرتعبة:

- «صلى على النبى!»

لم أكن أعرف ما العلاقة بين أرض الجبانة وشجرة يانعة. كانت أمى واقفة وسط ذلك الجمع كمقاول الأنفاس كأرجل الرجال ترسم بذراعيها فى الهواء خطوطاً ودوائر تتكلم بثقة امرأة: - «لا بد من قطع هذا الفرع! على عيني والله يا جدعان!

قطعه ولكن للضرورة أحكام! إبنى سيدخل على

عروسه بعد شهر! نور عيني أول عريس أفرح به يدخل

فى قاعة الفرن وعندى الأرض واسعة! حتى هذا لا
يرضى ربنا! لن نخسر الشجرة! سنخسر فرعاً
واحداً من فروعها الكثيرة ونكسب قاعة برحة يدخل
فيها الولد! بقطع هذا الفرع تأخذ القاعة راحتها!
فلا تضيعوا وقتكم فى التمحيك! اقطع يا جدع واسمع كلامى
أنا!!»

لحظت ذاك وقف الرجل بالمنشار ناظراً فى وجه أبى كأنه
يطلب رأيه فيما سمع. نكس أبى وجهه صامتاً بما يعنى القبول
مع الحزن على ضياع فرع مهم قد يميت الشجرة نهائياً. سأل
حامل المنشار: «نقطع يا ابو عماد؟»، فلم يرد، فأشار حامل
المنشار إلى معاونه الذى شمر ذراعيه وبصق فى كفيه ثم أمسك
بطرف المنشار المستطيل فيما أمسك الرجل بطرفه الآخر. ثبّتا
أسنان المنشار على ضلع الفرع التخين جداً يكاد يكون شجرة
كاملة قائمة بذاتها بغابة من أفرع تمتد منه. ارتفع زيق المنشار
وهو يحفر لنفسه مجرى فى لحم الفرع، بصوت أجش موجه. ثم
ارتفع صوت أنين الفرع إلى حد الصراخ الملتاع فيما المنشار
لا يرحمه رائحاً جائئاً ببطء ثابت مكين. ثم راح يرسل عواصف
الغبار من فتات لحمه المهشم بأسنان المنشار الذى ازدادت
حركته سرعة وقد أب صوت صراخ الفرع إلى أنين مكتوم يكاد
يفتت الأكباد، وكانت صيحات الرجال الحذرة قد غطت على

صوته حينما تجمعوا رافعين أذرعهم بعصى وعروق من الخشب تتقى ميل الفرع للسيطرة عليه قبل أن يسقط بثقله فوق الجميع فيطحنهم. كانت النداءة الخضراء تلمع على منشورين عريضين على شكل القلب أحدهما فى الجذع الثابت والآخر فى الفرع المنبت المائل. كاد الفرع يصيبهم فى مقاتل لأنهم كانوا مشغوفين برؤية الشجرة بعد انفصال الفرع عنها. وحتى بعد أن جرجروا الفرع بعيداً خارج الدار سرعان ما ارتدوا عائدين فالتفوا حول الشجرة يتفحصونها من جميع النواحي وكانت بالفعل كالثكلى، تقف منكسرة حزينة زعراء مكشوفة العورة، صار منظرها شائها جداً، بدت بقية فروعها كأنها تجمعت وإنزوت، وازدادت ميلاً وتهالكاً على سور الحوش كأنها تلقى نظرة الدواع الأخير على فلذة كبد الأم المغلوبة على أمرها. لم يستطع أحد من الرجال إخفاء ما ألم به من كدر وحزن على شجرة كانت جميلة فأصبحت كتعاء شوهاء...

منذ ذلك اليوم البعيد لم تكف أمى عن النظر فى الشجرة كلما مرت، تطيل التحديق فيها بكثير من الشعور بالذنب، خاصة أن القاعة التى تزوج فيها أخى حين تم بناؤها بدا كأن الشجرة قد خاصمتها نهائياً فمالت عنها إلى بعيد حرمتها من شبح الظل...

- «بُصَّ يا بو عبود! بُصَّ فوق دماغك يا شيخ!».

انتزعها الصوت الباكي من جُب الصمت فانتفضنا مذعورين.
كانت أمى قد تمكنت من النطق أخيراً، فصارت تُشير إلى
الشجرة صائحةً صيححتها المفزعة، لدرجة أن أبى توقع ثعباناً
سيسقط عليه. وفيما يشبه المعجزة تمكنت أمى من نفخ
جسدها واقفة دفعة واحدة. اقتربت منا وهى تشير إلى المنشور
العريض الشبيه بشكل القلب، الذى كان مايزال ندياً
مخضوضراً كأنه منشور منذ دقيقة واحدة..

ربت أمى على ظهر أبى:

- «احنا قطعنا الفرع ده من إمتى يا بو عبود؟!»

- «فات أكثر من سبع سنين اهه!..»

فبهدوء شديد وضعت يدها تحت ذقنه موجهة عينيه إلى
الجرح المتخلف عن قطع الفرع:

- «بص يا بو عبود! سبع سنين وأنا باشقّر على مطرح

الجرح ده! واللى باشوفه كل يوم هو هو بس النهارده زايد عن

الحد! بص يا بو عبود! شايف الدموع شكلها إيه؟! شايف

الشجرة محروقة من العياط ازاي؟! سبع سنين وهى بتسحّ من

كل عين حقان!!».

فى البداية نظر لها أبى كمن ينظر لمجنون ينذر بالخطر،

لكنه حول بصره إلى مكان الجرح فى الشجرة على سبيل الهزل.

كان بصرى قد استقر عليه. لشدة ذهولنا كانت هذه المساحة

المخضوضرة المنشورة على شكل القلب تنزّ بقطرات الماء
تنساب خيوطها بغزارة فتسيل على عضلات جذع الشجرة
واضح، وقد خلفت خيوط الماء أثراً مبرزت مجاريها عن بقية
الجذع..

زحفت يد أبى المعروقة كالأخطبوط نحو الجرح فى الشجرة
وهو يرتعش وينتفض، مسح قطرات الماء عنه فابتل كفه ونبتت
قطرات غيرها فى الحال. صار أبى يمسح بكفيه فتشر المياه
كشلالات صغيرة صنعت وشيشاً على الأرض. صار يرتعش
مردداً بصوت راجف مقهور: لا حول ولا قوة إلا بالله! سبحانك يا
رب.

لحظتئذ نهاوت أمى على مكان الجرح فى الشجرة كما ترتدى
الثكلى على مقبرة ابنها. بصوت مبجوح مذبوح من فرط البكاء
والغصص راحت تصدر نغمات رفيعة حادة كصوت مواء القطط:
- «حقك على يا اختى! أنا الغلطانه فى حقك! ربى اقطعنى!
اعملى معروف قطعنى قلبى! سايقه عليكى النبى!..»

واحتبس صوتها. وعندما انحنى أبى ليربّت على ظهرها كان
الدمع يُغرف وجهه ويديه وشاش أمى وظهرها لا نعرف إن كان
دمعهما أم دمع الشجرة، والشمس فى كبد السماء تفرد فوقنا
ملاءة فى لون الذهب.



فتح المجاديل

كنا جلوساً على مقاعد خيزرانية متهاكة، وفوق صناديق خشبية واطئة، فى ممر مبلط ببلاطات عريضة عتيقة متاكلة الأطراف، عرضه لا يزيد عن مترين، خلفنا باب حجرة تحتوى على مقبرة أثرية دفنت فيها «خوند» زوج إبراهيم باشا البطل ابن محمد على باشا. أمامنا - لا يفصلنا عنها سوى صف من الأحجار الواقفة - ساحة متربة بلا سقف، تناثرت فوقها ست شواهد مستطيلة بعض الشئ فى أحجام متساوية كست مصاطب عالية مبنية من الإسمنت، لكل منها رقبة تخينة مبرومة برأس مقلوطة، فى صفين متقابلين فى كل صف ثلاثة، وفى المنتصف مصطبة كبيرة بقبتين مستطيلتين أشبه بصوبات الزرع لكل منها رقبة عالية يفصل بينهما مسطح عريض يحلونا الجلوس فوقه ساعة الشفق، تنصب على رعوسنا تيارات هواء طرى منعش.

نعرف أن هذه المقابر السبعة تضم رفات رجالات قصر إبراهيم باشا من حاشيته المفضلين لديه. ومن خلفهم - على يسارنا - حجرة قائمة وحدها كالضريح، تحتوى على مقبرة شديدة الأناقة مزخرفة مدندشة بالتزاويق والتعاشيق الصدفية الملونة، تضم رفات أحب جارية لإبراهيم باشا، كانت وصيفة لـ «خوند»، ولكن من الواضح أنها كانت عشيقته المفضلة.

أمامنا منقد فخارى فيه فحم مشتعل، حوله مجموعة كبيرة من حجارة النارجيلة، النارجيله وإسماعيل نعناع ذو الشعر الأبيض المجعد الخشن كفروة الخروف، وجلبابه الأبيض الهفهاف الكاشف عن ساقيه النحيلتين الأسمرين عروقهما نافرة. بكل حيوية ونشاط يتناقض مع سبعين عاما يحملها على كتفيه النحيلين، راح يوالى الرص والتكريس والتوليع وتقديم مبسم النارجيلة لكل منا، مصحوباً بصيحات البهجة والمرح الهازل بصوت عال مجلجل فيه شخر وغنج قدر ما فيه من تسلط وجدية، خاصة حينما يخوض فى حديثه المفضل دائماً: أخبار الشوانز جنسياً، أحدث النكات عنهم، نوادرهم، طباعهم التى تفلق الحجر، شبهاتهم الواضحة على فلان وعلان من شخصيات نعرفهم ونجالسهم، وبعضهم حجاج وناس فى غاية الطيبة.

القعدة حميمة بالنسبة لى، لكننى أمتنع نفسى من المجئ إليها كثيراً لأنها تستغرقنى فى هذر سخيّف، وأفضل عليها قعدة المقهى فى نهاية هذه العطفة على مبعدة خطوات قليلة من هذا الحوش الأثرى. إلا أننى فى الشهور الأخيرة أصبحت أجيء إليه بشكل يومى، تحت ضغط شديد من صديقى الحميم أحمد حماد بائع السمك فى مزلقان منشية ناصر. وكنت فى الواقع محيراً، فعم أحمد لم يكن يرحب بالمجئ إلى هنا حينما كنت أدعوه فى بعض الأحيان هرباً من ضجيج المقهى، وبضمان من نعناع بأنه

سيخلق الباب علينا من الداخل فلا يتطفل على قعدتنا أحد،
وكثيراً ما كان يفعل، لكن الأكثر أن يفلت منه الزمام فيتكأ
على القعدة صنوف من البشر لا اتساق بينهم على الإطلاق،
يغتنب نعناع كثيراً بحضورهم، إذ ينجلي تحت استفزازاتهم
المستمرة له، فيشبع هوايته في الردح بصوت عال، يتضمن
ردحه سباباً ينفر منه عم أحمد نفوراً شديداً، إذ أن رذاذ السب
سرعان ما يصيب كل الجالسين كبيراً وصغيراً لا يفرق بين
محترم وهزأة. عم أحمد موته وسمه أن يلحق باحترامه أى
خدش ولو غير مقصود، وحينما يشعر أن القعدة بدأت تفقد
وقارها فإنه يضع ساقاً على ساق، يصلح وضع العباءة على
كتفيه، يعدل العمامة الصغيرة المحنقة، وربما خلع الطاقية
الصوف وأعاد لف الشال حولها بإحكام متقن كأنه يحيط نفسه
بسياج خفى يقيه سُخف المزاح وطولة اللسان. يرفع ذراعه
الطويل، فينزل كم جلبابه الواسع عن كم الفانلة الحابك على
المعصم وقد أحاط به سوار الساعة الرادو البارقة ويلمع في
بنصره الفص الفيروزي الأخضر، يطلب من الجميع أن يكفوا
عن المسخرة، لكنه يطلب ذلك بصنعة لطافة، يشرع في حكي
حكاية لطيفة لا بد أن تجيء على الوجيعة، قد تكون حكاية موقف
حدث له أو لأبيه أو لعمه أو لعمر بن الخطاب أو حتى لجحا أو
أبي النواس، ولربما تكون محض تأليف من خياله الواسع

الخصيب، لكنها فى النهاية لابد أن تحض على الأحرار وإعطاء كل ذى حق حقه. ولأنه خفيف الظل، متكلم، فى أعماقه كاتب روائى مُحبط لم ينل من التعلیم والثقافة أى حظ فإنه موهوب فى الحكى قادر على جذبته ولفت انتباهك. إحساسه بالفكاهة والسخرية عال، مما عود الجميع على أخذ كلامه على محمل السخرية والتكيت دائماً بدرجة يضع فيها المغزى الأخلاقى الذى هدف إليه. وهو بوضعه هذا مؤهل لتلقى السخرية من طويل اللسان لكنه لا يتلقاها نظراً لشدة احترامه لنفسه ولطيبة قلبه، فيما عدا بعض المسنين الذين ينادونه فى الطيبة، إذ يناديه بعضهم بأحمد سمكة. وأقصى مزاح مودس معه مزاح الحاج أنور حسنين تاجر الخردة -البالغ من العمر تسعين عاماً - إذ يسلط فيه عينيه بحركة صبيانية شقية خفيفة الظل لبرهة طويلة تثير انتباه الجميع، يختمها بقوله: «إزيك ياد يا حرامى!» فيرد صديقى بكلمة واحدة بلهجته الصعيدية العتيقة: «حراميشى»، وأحياناً: «بس يا ولدا!» كأنه يداعب بالفعل طفلاً عزيزاً، لثقته وثقة الجميع أنه فى مسائل الذمة والضمير والتقوى والصالح يُعتبر عملة نادرة، ولا أحد فى المنطقة كلها يطاول قامته فى هذه الصفات لا ينقصه من صفات المسلم الكامل إلا الحج إلى بيت الله الحرام وتلك عطية - فى نظره - يمنحها الله بأوان، ولا بد أن أوانها قادم بإذن الله ولكن، لو كان الله يحبه

حقاً لعجل بمجيئها قبل أن يتكل هو على الله ويموت..

انتبهت فجأة على صوت عم أحمد يردد هذه العبارة تعليقاً على حوار كان يدور منذ هنيهة بينه وبين نعناع، حول أمر فاتنى الإنتباه إليه، فما أكثر ما يفوتنى من حديث جانبي كلما جلست هذه الجلسة فى هذا المكان المفعم بمشاعر روحية موحية سرعان ما تستغرقنى بمجرد الجلوس، سيما فى وقت الشفق هذا، حيث تنتصب فى ناظرى مئذنة مسجد قايتباى الشامخة الباسقة تخترق قلب قرص الشمس الأحمر كطرف سكين ينغرز فى برتقالة. لكن كلمة الموت تكررت فشدتنى من عنق القلب. سرعان ما تبين لى أن نعناع كان يمتدح عم أحمد - الذى كثيراً ما أرانى متوحداً به - ويتمنى له نوال الحج قبل أن يموت. رغم تأييدى لنعناع فيما ذهب إليه، فإننى شعرت فى لهجته بكثير من الملق الذى يجيد نعناع توظيفه كلما أراد مصلحة شخصية من أحد. فنعناع ليس طُربياً فحسب، إنما هو إلى ذلك صاحب صنعة دقيقة له فيها باع طويل وخبرة عميقة: تطريز الثياب، بالقصب أو بالخرز والترتر أو بشتى أنواع الكُف. لديه مشغل يحتل إحدى حجرات هذا الحوش بجوار مدفن خوند، فيه أربع ماكينات ماركة سينجر بدواسات، وبعض ولدان يشتغلون عليها، وأحيانا يقوم هو بنفسه باعتلائها كأنشط منهم إذا تمرد الولدان الصنایعية أو تملعنوا بهدف زيادة الأجر. يقوم بالطريحة وحده

فيما يجلس حوله بعض الأصدقاء يناولونه مبسم النارجيلة الذي لا يحب أن يفارقه أبداً. ينزل إلى وسط المدينة فيسلم الطريحة لأصحابها، محلات خان الخليلى، محلات الكرداسة، والغورية، وكل المحلات التى تستكرد السياح فتبيع لهم العباءات الحریمی والرجالى المشغولة بالقصب والكُف. هو إلى ذلك حالانجى كبير، واسع العلاقات، يعرف الكثيرين من رجالات المجتمع الذين لهم مقابر تحت إشرافه وحراسته، وموظفين كبار من وزارة الأوقاف التى تمتلك هى الأخرى مقابر تحت هيمنته ومن بينها هذا الحوش الذى نجلس فيه، أيضا هو على علاقة متينة دائمة بإدارة الجبانات والطب الشرعى. يعرف جميع ممثلى ومخرجى ومنتجى السينما بجميع أجيالهم، يفتح لهم هذا الحوش كل بضعة أيام لتصوير المشاهد، سيرة الممثلين والمخرجين والمنتجين مطروحة أمامنا على الدوام، ما دفعوه من إكراميات، ما أنفقوه فى وجبة الغداء، كيف توسط هو للكثير من أهل الحى كى يظهروا فى بعض المشاهد، كيف أتاح لأم حسن جارته فرصة كبيرة لبيع الشاى والقهوة للممثلين الذين يمكنون فى التصوير بضعة أيام قد تمتد أحيانا إلى أسبوع. يبدو أنه لشدة علاقته بالممثلين قد أصابته عدوى التمثيل فأصبح يتمسرح فى كل كلامه وحركاته وإيماءاته، لا سيما إن كان نصر العبيط حاضراً. نصر العبيط فى حوالى الثلاثين من العمر لكن

عقله توقف نموه عند الثالثة أو الخامسة من العمر إلا أنه بارع في التقليد، تحتفظ ذاكرته بعدد من مفردات السب البذيئة، يروح يصبها على نعناع، فهو الذى أطلق عليه هذا الاسم حينما عجز عن نطق اسمه الحقيقي. ونعناع يبادل السب بصوت عالٍ في مشهد مسرحي فاتن. ذلك أن نصر العبيط لا يعرف الفرق بين الشتيمة والاعتذار، فقد يدفع عن نفسه عدوان نعناع المفاجئ باسترحام هو في الحقيقة شتم بذي، فتتصادم المفارقات الجنونية في سياق عبثي لا ينتهي، يفعل نصر العبيط إذ يضربه نعناع بقسوة، يخلع ثيابه كلها، يمسك باله حادة، يقف إلى بعيد يصب السباب بأعلى صوت وحرارة، طالبا من نعناع أن يجئ إليه لو كان رجلاً. فما أن يصل إليه نعناع حتى ينطلق جرياً يلوذ بأحد المارة أو بالفرار. فإن أمسكه نعناع راح يستحلفه أن يعفو عنه: «رب النبي! معلى! ورب النبي!». فما أن يتركه نعناع ويمضي خطوة حتى يصيح في أعقابه: «عندك أمك! أم نعناع... ع... ع... ع... ت ت ت ت ت تعالى هنا إن كنت راجل». وهكذا، حتى يشعر بالتعب فيعود يتقرفص بجوار نعناع كأن شيئاً لم يكن، أو يحمل صرة هدومه الخلقة ويمضي إلى المقهى، ليعيد نفس المشهد مع آخرين..

رنت في أذنى كلمة الموت مرة أخرى، فأزعجتني. تذكرت في الحال أن صديقي عم أحمد حماد كان طوال الشهور الأخيرة

منشغلاً بمسألة الموت، فرغم أنه لم يكمل الستين من عمره بعد، ولا يزال بصحة جيدة، يصحو كل يوم عقب صلاة الفجر مباشرة، يحمل الجنّبات مع ولده ليقف بها في انتظار عربة أجرة تقبل توصيله من المقطم إلى سوق غمرة، ليحضر المزاد، فيتسوق شروات السمك الطازج الحى بشطارة وحلاوة لسان وحسن معاملة: ثلاثمائة كيلو، خمسمائة لو اطلو المزاد، بلطى وقراميط ومكرونة وسردين، فى عربة نقل سيزوكى يحمل كل ذلك عائداً إلى سوق مزلقان منشية ناصر، ليجد الزبائن فى انتظاره من صبحية ربنا، يقضى رابعة النهار فى مناهدة ووجع قلب مع الزبائن الذين يحبهم ويتمنى لو استجاب لفصالحهم لولا أن مكسبه قليل جدا من الأصل، ولا بد له أن يلم «بتاع الناس» ليسلمه غداً إذ هو يدفع ثمن ما تسوقه بالأمس قبل أن يدخل فى أى مزاد، بعد صلاة العصر يعبئ الفلوس فى قرطاس، يعود بها إلى منزله الذى اشتراه مؤخراً فى حارة العجوز بعد تلطيم فى الأحواش فى العراء سنوات طويلة بأولاده الكثر، يترك بقايا السمكات لابنه يتسلى ببيعها، يخلع ثياب السوق يستحم بالماء الساخن والصابون، يتغدى، يتمدد على السرير ساعة أو بعض ساعة، يصحو فيتوضأ ويصلى العصر، يلبس الجلباب الصوف فوق جلباب من البويلين، يتعمم، يطرح العباءة على كتفيه، ومن فوقها كوفيه من الكشمير، وفى قدميه جورب وحذاء لمّيع، وفى

يده المسبحة، وينطلق إلى المقهى فيجدنى فى انتظاره حيث نشرب الحجرين لزوم الترويق فى استقبال المساء كما يقول دائماً، يستدرجنى حتى أقرأ عليه صفحات من الكتاب الذى أدركنى وأنا أقرأ فيه، أو بعض فقرات مما أكتبه، وسواء كان الكتاب فى الفلسفة أو فى التصوف أو فى الأدب فإن لديه قدرة مذهلة على الاستيعاب رغم صعوبة الأساليب، بحيث يعيد على ما فهمه مما سمع فإذا هو قد استوعب خمسين فى المائة مما ظننت أنه لن يفهمه، الطريف أن ما يفهمه - حينما يعيده على - يتحول إلى شئ أشبه بالفولكلور أو المعتقدات الشعبية..

رغم كل تلك الحيوية فإنه فى الشهور الأخيرة قد بدأ ينشغل بمسألة الموت، إذ يرى نفسه فى الأحلام فى مواقف غريبة معظمها لقاءات مع الموتى من أقاربه، وذلك فى نظره إشارة إلى قرب دنو الأجل: «خلاص يا أستاذ يلاً حُسن الختام! أحلامى ما تنزلش الأرض أبداً!!»، ومعنى ذلك أن عليه من الآن أن يفكر فى الدار الآخرة، لقد وفقه الله أخيراً فى إتمام البيت الذى يسكنه من بعده أولاده، إطمأن إلى أن البلدوزر لن يكسحهم فى طريقه كما حدث لهم عشرات المرات..بقى الآن أن يطمئن على البيت الآخر، الدائم، الذى سينام فيه نومته الأبدية. صحيح أن لهم فى بلدة الغنايم فى الصعيد الأسيوطى مقبرة عائلية كبيرة، ولكن أين هو منها الآن؟ هل ينتظر جثمانه حتى يتم نقله إلي الصعيد

فى بهدلة ومسخرة؟ ثم إنه أصبح الآن قاهرياً ويجب أن يُدفن
حيث يقيم أولاده ليتمكنوا من زيارته باستمرار..

كنت أظنها مجرد هواجس عابرة، لكننى فوجئت به ذات يوم

يقول:

- «بارك لى يا أستاذ!»

- «خير يا عم أحمد؟»

ذلك أن السنوات الخمس التى سبقنى بها فى الميلاد كفيلة
وحدها بأجعلنى أقول له يا عم، سيما وأنه لم يذكر اسمى
مجردا على الإطلاق، بل لعله لم يذكره أصلاً، فأنا على لسانه:
الأستاذ، والأستاذ فحسب، فرغم العلاقة الحميمة بيننا، لدرجة
التوحد الكامل فى الطبع والنفسية والخيال والاتصالات الخفية
التي تحدث بيننا عن بُعد، كان يتذكرنى فجأة فيرانى، أو أتذكره
فجأة فأراه، فإذا تأخرت عن موعدى اليومى فإنه يرانى وهو
يختم الصلاة فى مسجد قايتباى فى مواجهة العديد من
الكشافات المبهرة فحين أحضر يتضح له أننى لاحظت ذاك كنت
أصور حديثاً للتليفزيون.. إلخ، رغم ذلك فعلاقتنا قائمة على
التوقير والاحترام المتبادل كأن كلاً منا يتعامل مع نفسه..

قال: - «اليوم دفعت عربوناً لقطعة أرض فى القطامية!».

- «مبروك! ربنا يعطيك العمر حتى تبنيها عمارة كبيرة!»

- «سأبنيها حوشاً! مقبرة! الحكومة قسمت هناك أرضاً

كبيرة للمقابر بأسعار معقولة! لماذا لا تحجز لك قطعة يا أستاذ؟
احجز لك قطعة لأن الاقبال عليها كبير! أسلفك أى مبلغ تحتاجه
للعربون!»

- على أولاً أن أوفق فى احتجاز شقة للأولاد! فشقتى كما
تعلم آيلة للسقوط!»

- «هذه بلد لعينة والله يا أستاذ رجل فاضل مثلك يعدى
الخمسين من عمره ولم يجد شقة يسكنها؟! إنه كفر والعياذ
بالله! على كل حال فالمقبرة الآن أسهل وأوجب! الواحد منا ما
دام قد عدى الخمسين ولم يجد شقة للسكن فالأفضل أن يشرع
فى البحث عن مقبرة! ولو أن المقبرة الآن.. اسكت يا أستاذ!..
اسكت! حسبت التكاليف وجدتها تتعدى العشرين ألفا بعد البناء
والترخيص!!»..

مكتنا بعد ذلك أسابيع طويلة لا حديث لنا فيه إلا حديث
أرض القطامية ومشاكلها: فالمصيبة أن الولد المهندس
المختص فى إدارة الجبانات يسكن بجواره فى حارة العجوز،
وهو ولد والعياذ بالله طويل اليد يأكلها والعة، لا يرد عليك السلام
إلا بالفلوس، وإلا فمن أين يركب السيارة (البيجو ٥٠٤) وهو فى
الأصل كحيان ابن كحيان لا هو مهندس ولا حاجة كل ما هناك
أنه يحمل دبلوم الصنایع ويطلق على نفسه لقب المهندس ظلماً
وعدواناً، يطيح فى أصحاب المقابر والطربية لا يعطى أى

تصريح من أى نوع إلا برشوة كبيرة باعتباره الموظف المختص بتخليص أوراق الأوامر والقرارات بعد أن يقوم بالمعاينة، فهو لذلك بارع في اختلاق المعاذير والتأجيل حتى يفهم صاحب الحاجة فيشغل مخه يتلحح. كان عم احمد يظنه سيراعى الجيرة لكن اتضح أن الخسيس خسيس، وذيل الكلب لا ينعدل حتى لو علقوا فيه قالب طوب. وعم احمد سخي وكريم ومفتح، كان من نفسه يدبر له هدية كبيرة ثمينة لهذا الولد الملعون بشرط أن يقدمها فى الوقت المناسب حتى لا تكون فى المقابل صراحة، إلا أن الكلب كلب يشمشم على قطعة العظم العاجلة بدلاً من خروف أجل. المهم أن أوراق عم احمد بقيت فى درج المكتب أسابيع طويلة منتظرا أن يعرض عليه عم احمد الرشوة، عم احمد متحرج خائف يكتفى بالتلميح الواضح. غير أن الولد الكلب - كما حدس عم احمد - يعرف أن لعم احمد صديقاً صحفياً، فى نفس الوقت يعرف أن عم احمد يعرف أنه مرتشٍ واسع الذمة فائح الرائحة، فما صدق أن جاءت مصلحة لعم احمد فانتهز الفرصة ليثبت له كجار مهم أنه ولد نظيف شريف لا يقبل الرشوة ولا يوالس على شغله. وهكذا راح يفلى فى الأوراق حتى عثر على عقبة تافهة فأوقف الطلب من أجل استيفاء هذه النقطة التى تكلف الكثير من الجهد والوقت والمال، حتى فوت على عم احمد فرصة وضع اليد على القطعة فضاعت

منه كما ضاعت كل مصاريفه فى الفاشوش..

عادت كلمة الموت تدق قلبى من جديد بإلحاح. اعتدلت فى
جلستى مائلاً نحو عم احمد ونعناع، لأعرف سر هذا الولد
الحميم المفاجئ، وسر هذا الأدب الجم الغريب الذى يتكلم به
نعناع مع عم احمد على غير العادة. اعتدل عم احمد بدوره
فواجهنى:

- «ناخذ رأى الأستاذ!»

- «طبعاً لايد من رأيه! كل شئ سيتم بشهادته!»

هكذا قال نعناع، ثم ترك الماشة والحجر وقد تلبسته حالة
من الوقار المفاجئ غير متسق مع شخصيته الهازلة أبداً. ثم
أشار إلى الشواهد السبعة القائمة أمامنا فى الساحة المتربة،
وشرع يتكلم، لكن عم احمد قاطعه:

- «باقول لك ايه يا استاذ! نعناع يبيعنى طربة من هذه

الطرب!!»

ثم نهض واقفاً، اتجه إلى الشاهد القريب منه مباشرة وهو
أول مصطبة على اليمين، وضع يده عليها صار يتحسس الرقبة
الإسمنتية الغليظة فى حنو بالغ كأنها رأس طفل وليد، قال: هذه
يا استاذ. قالها بفخر وتمن، بلهجة طفل فقير حاف القدمين
ينتقى بذلة فاخرة فى فترينة البائع وهو يعلم مقدماً أن البائع
سيسخر منه لا محالة. راح يلف ويدور حولها متفحصاً وقد

اعتزته ثقة ولمع في عينيه حب للمغامرة والمخاطرة. قلت:

- «ولكن هل هذا ممكن يا نعناع؟!».

انجصص في قعدته:

- «ممكن ونصف! ليست هذه أول طربة أبيعها!..»

- «هل بعت من هذه الطرب؟!»

- «ثلاثة! أنظر تجد أسماء أصحابها مكتوبة عليها!..»

- «شيء عجيب يا نعناع! ورجال حاشية إبراهيم باشا

المدفونين فيها؟ كبار رجال دولته؟!»..

ضحك ضحكته الصاعقة الهازئة التي تنتهي دائماً بشخرة

مكتومة. شوح في سوقية:

- كانوا خصياناً! وتحولوا إلى تراب! المقبرة من هذه

المقابر لم تفتح منذ مئات السنين! نفتحها إذن لتتفتح أبواب

الرزق! ننتفع بها! هي الآن جاهزة مماجميعه! أسبوع كامل وأنا

أشتغل في تنظيفها! إنها من الداخل حجرة مبنية وآخر أبهة!

القعدة فيها مملكة! سبحان الله فسقية تحت الأرض تجلس فيها

كأنك جالس في بلكونة مسجد السلطان قايتباي البحرية! ما

رأيكم لو نزلناها الآن فأكملنا قعدة العصرية فيها؟! جربوا قلن

تحسروا شيئاً!!»..

لم ينتظر ردنا، بل قام حاملاً النارجيلة الصغيرة بيد، ومنقذ

النار باليد الأخرى، وطرف ذيل جلبابه موضوع بين أسنانه.

مضى نحو الشاهد، فإذا بالمجاديل - الغطاء الحجري
للفسقية- كانت مرفوعة، وضع قدمه في فتحة دائرية كفتحة
البالوعة، بدربة راح يغوص بداخلها شيئاً فشيئاً حتى اختفى
رأسه ثم اختفى ذراعه بالنارجيلة. بعد برهة جاءنا صوته يرن
في العمق السحيق منادياً في مزاحه المعتاد:

- «هات الحجارة يا بو صابر وتعال أنت والأستاذ!»..

اقشعر بدنى، رميت بصرى، رأيت عم أحمد يرتجف ولكن في
جذل طفل أغراه الرفاق بالنزول إلى البحر في مغامرة محبوبة
رغم مخاطرها. أقبل نحوى كأنه يعتذر عن اضطراره لتلبية نداء
نعناع وفي نفس الوقت يغرينى بمشاركته في المغامرة الطريفة،
قال في تردد واهن:

- «تعال يا أبا نشوف الراجل المهفوف ده حيعمل كيف؟!

حاكم نعناع ده ملعوب فى أساسه !!»..

جمع الحجارة بالفعل وكل ماتحتاجه الجلسة ومضى مشمراً
ذيل جلبابه الصوفى الثمين رأيتنى أنهض فأسير خلفه دون أدنى
مقاومة..

على حافة الفتحة وقف عم أحمد يرتعش متردداً يطلق
الضحكات الجذلة:

- «ما رأيك يا أستاذ؟ نعملها ونبقى مجانين مثله؟

هيه! توكل على الله! إيه يعنى؟ نبشر على أنفسنا

بالموت؟ نحن ميتون ميتون فما الداعي للخوف؟!»..
شجاعة مفاجئة اعترتني حين رأيت سلماً حجرياً أنيقاً
محتدق الدرج يبدأ من الحافة التي ترتكن عليها المجاذيل حتى
أرض الفسقية في خط مائل شبه حلزوني. شرعت في النزول
فكاد قلبي يتوقف عن الدق بل لعله توقف بالفعل لجزء يسير من
الثانية. شعرت أنني أسترده متنفساً بعمق فيما تصافح قدمي
الدرجة التالية، ثم شعرت به يقوى مع النزول حينما لاح لي
نعناع متربعاً على كليم رخيص مفروش فوق الأرض مما يؤكد
أنه جلس فيها من قبل مرات، وعدة الشاي متناثرة أمامه مع
وابور السبرتو.. تربعت بجواره مرتعشاً وشبح عم احمد يشيع
الظلمة فجأة أثناء هبوطه وقدمه، ثم عاد الضوء بعد أن تربع
بجوارى ناظراً لي في غبطة كأنه يقول: «إيه رأيك بقي في
المغامرة اللطيفة دي؟!». أشعل نعناع وابور السبرتو، وضع
فوقه براد الشاي، كان الهواء العليل الزكي الرائحة يهب على
شعلة الوابور فيطوحها بشدة، ويلفح وجوهنا برفق ومودة وحنو،
حتى شعرت برغبة مفاجئة في النوم بعمق، فإذا بي أتمدد قائلاً:
دستوركم، وإذا عم احمد يطبطب بيده على ركبته إشارة لي بأن
أأخذ منها وسادة. فعلت.. صرت كلما جاعني مبسم النارجلية
أفتح عيني بصعوبة أبذل جهداً لأرفع رأسي مرتكزاً بكوعي على
الأرض كي أتمكن من شد الأنفاس.. ثم صار الكلام وصوت

كركرة النارجيلة يبتعد عن أذنى شيئاً فشيئاً حتى اختفى تماماً، شملتني حالة من الصفاء الشديد العميق فلست بالمستيقظ ولست بالنائم لكن صلتى مقطوعة بكل شيء حولى مع أننى أتذكر إلحاحاً شديداً يحملنى على مسك مبسم النارجيلة، أتذكر يداً كيدى تمسكه بالفعل، فمأً كفى يطبق عليه يشد الأنفاس، كما أتذكر أن نفس اليد امتدت لتمسك بكوبة الشاي مرات عديدة، ونفس الفم يرشف منها، وصوت كصوت عم احمد ينبهنى إلى أن أحذر سخونة الكوب فلا أحذر إذ لا أشعر بسخونة شيء، ثم إذا بيد خشنة قوية تطبق على يدي الاثنتين، وثمة قوة عاتية تشدنى دفعة واحدة واقفاً علي قدمي كأنها انتزعت جذورى من باطن الأرض، لأجد الظلام من حولى وفوقى كثيفاً، يلمع فى جوفه بصيص ضوء منبعث من جمرات النار الواهنة فى الموقد، ونعناع وعم احمد كل منهما ممسك بشيء من معدات القعدة، وإحدى يدي لاتزال فى قبضة يد نعناع تسحبني برفق فأمضى معها كالمنوم مغناطيسياً، ثم أضعده خلفه درجة فدرجة، لتصافح وجوهنا ملاءة ضوء كهربى شاحب ينبعث من لمبة صغيرة متدلية من حائط حجرة دفن الوصيفة تفرش الساحة الترايبية بضوء ليمونى، والمصاطب السبع بشواهدا تفرش ظلالها الممطوطة على الأرض تتمازج ظلال رجسها فى بعضها البعض مكونة أشكالاً خرافية، والكون كله تشمله حالة

سكون مطبق، فكأننا منشورين لتونا، كأننا أول مخلوقات يتم
بعثها من جديد بعد موت دام ملايين السنين لدرجة أننى وعم
احمد صرنا نتحسس خطواتنا على نفس الأرض التى طالما
دهسناها فى أنصاف الليالى. مكثنا واقفين لبرهة طويلة
كالغرباء لا نعرف لنا جهة ولا هدفاً..

لم يعدنا إلى الواقع الذى كنا نعرفه سوى ضحكات نعناع
الصاعقة التى تنتهى دائماً بشخر وغنج مكتوم. قال:

- «أجيب لكم مصوراتى؟»

فضحكنا. دبت فىنا الحياة لأول مرة فيما نتخذ جلستنا
السابقة على الكراسى المتهاكة. وحينما تحسست يد عم احمد
قرص الكرسي بحثاً عن رعوس المسامير الناتئة التى قد تنغرز
فى الثوب فتمزقه، أدركت أننا قد استأنفنا الحياة بالفعل وبدأ
اتصالنا الحقيقى بالواقع، فقمنا واقفا وتحسست أنا الآخر
رعوس المسامير التى طالما سببت لى العكنة وانحراف
المزاج..

كان نعناع مصراً على إنهاء الصفقة فى نفس الليلة، فبدأ
يعد لشاى جديد، ويغير ماء النارجيلة، ويحيى النار فى المنقد.
وضح أن عم احمد يشاركه نفس الرغبة، فلم يعترض، بل قام
عابراً صف الأحجار إلى الساحة الترابية وانتصب واقفاً بين
مصطبتين، فخلع الكوفية الكشمير عن كتفيه، فرشها على

الأرض، أقام صلاة العشاء على مهل...

قلنا: حرماً.

قال: جمعاً إن شاء الله.

قال نعناع: «ما رأيك يا عم في هذه النومة؟!»

رد عم أحمد: «مثل العسل! آخر مملكة!»

قلت كأننى أدخر الورقة التى ستثبت فشل هذه الصفقة من

أساسها:

- «ولكن هل يحق لك أن تبيع ما ليس ملكك يا نعناع؟!

هذه المقابر ملك لوزارة الأوقاف! وما تملكه وزارة الأوقاف

لا يباع أصلاً!»

قال كأنه كان فى انتظار هذا القول:

- «أنت لا تشتريها لتكون ملكك عدم المواجهة!

أنت تشتري حق الإنتفاع بها! فهات محاميك وتعال نكتب

العقد بذلك!»

- «ومن يضمن لنا أن وزارة الأوقاف توافق على شئ كهذا؟!

هل هو عمل مشروع قانوناً؟!»

- «فما صنعتى إذن؟! هذه مهمتى ومسئوليتى! لك أن تتسلم

منى رخصة باسمك بمقتضاها تصبح هذه المقبرة خاصة بك

أنت وأسرتك! ولا شأن لك بما سافعله أنا فى الوزارة أو إدارة

الجبانات! فهذه شغلتى!»

- «فما المطلوب الآن؟»

- «نكتب العقد مثلما فعلت مع غيرك! عند توقيع العقد تدفع ثلثي المبلغ المطلوب ويبقى الثلث لحين تسليمك الرخصة! محاميك طبعاً سيكون الحاج محسن عوف وهو رجل مؤمن لا يقبل الغش أسأله! فهو الذى كتب عقود هذه المقابر الثلاثة المباعه لغيرك!»

- «بقى أن نعرف قيمة المبلغ الذى تطلبه!»

هكذا صاح عم احمد. فقال نعناع:

- «بعت بألفين ونصف! ولأجل خاطر عيون عم أحمد والاستاذ أبيع بألفين وثلاثمائة!»

بدأت المساومة من جانب عم احمد. من هنا لهنالك رضى عم احمد أن يدفع ألفاً وثمانمائة جنيه، على أن يدفع الثمانمائة عند توقيع العقد، والألف يدفعه عند استلام الرخصة. أصر نعناع على أن يكون المبلغ الباقي خمسمائة فقط، وثبت على موقفه فانفض المجلس على ذلك..

مضى حوالى أسبوع، تلاقينا خلاله كثيراً فى المقهى دون أن نفتح الكلام فى هذا الموضوع، مما جعل عم احمد يثق فى جدية الصفقة. ثم إنه سأل الحاج محسن عوف المحامى عن حقيقة الأمر فأفهمه أنه جائز ومشروع، على أساس أن المقابر قد أصبحت خالية ولا ضير على الوزارة أن ينتفع بها الناس فى

دفن موتاهم طالما أن الملكية تبقى في النهاية لوزارة الأوقاف، خاصة أن مبدأ الصدقة في الدفن معمول به. وهكذا تسمرت الفكرة تماماً في رأس عم أحمد. وفي قعدة أخرى ضمت الحاج محسن عوف المحامى تمت كتابة العقد، ودفع عم أحمد المبلغ المطلوب. وبعد أقل من شهر كان نعناع قد نشط في استصدار الرخصة باسم عم أحمد فسلمها له وتقاضى بقية حسابه..

أول شيء فعله عم أحمد هو إعداد قطعة الرخام المربعة أعدها نعناع أيضاً بمعرفته من أجود أصناف الرخام، كتب عليها بالحفر:

هذا مدفن أحمد محمد حماد وعائلته. وتم لصقها على واجهة المصطبة تحت الشاهد، فكانت جميلة الشكل فعلاً..

دخل حياتنا إدمان جديد لا سبيل إلى مقاومته: متعة الجلوس أمام هذه الرخامة، وقراءة اسم عم أحمد بالخط الرقعة الكبير الجميل محفوراً ومشبعاً بالحبر الأسود. بهذه الرخامة وحدها دخل عم أحمد في زمرة العظماء الذين نقرأ أسمائهم على واجهات الكثير من مقابر المنطقة. وكان يروق لى أن أتابع جلسة عم أحمد وهو يتأمل في الرخامة بنظرة تبدو شاردة، ثم ينجعص واضعاً ساقاً على ساق قائلاً: «أمال يا أبا». حينئذ يحلو لنعناع أن يفرغ ماء النارجيلة المصنن برائحة التبغ المحترق يرشه أمام المصطبة. فيقول عم أحمد:

– «وماله! وصيتك أن ترش فوق رأسى ماءً كثيراً نظيفاً!
روحي في المياه خل بالك!»..

يقول نعناع وهو يغير ماء النارجيلة فيسرف في دلق المياه
على الأرض:

– «بعد عمر طويل إن شاء الله! يا ترى مين يعيش!
مت أنت ولك على أن أفتح الخرطوم على رأسك طول النهار
صيفاً وشتاءً

يشد عم احمد أنفاس النارجيلة في سأم متلفتاً نحوي:
– «أستاذ! أوصيك أن تأتي بشلة أصدقائك كلهم وتسهروا
هنا كل ليلة بجواري حين أموت! أنت تعرف أنى أحب الونس!»..
– «اطمنن يا سمكه! سنسطلك كل ليلة!»

هكذا يقول نعناع. وأقول:

– «ربما أموت أنا قبلك يا عم احمد!»..
– «إسمع يا أستاذ! لماذا لا ندفن معاً هنا؟ ما الذي
يضطرك للسفر إلى البلد لتُدفن هناك؟ هل

تجد نومةً أحلى من هذه؟ أنت جربت بنفسك!»..
أعجبتني الفكرة فعلاً، بل استقرت في رأسي، سيما وأنا
مقتنع بأن هذا الحوش بالذات لابد أن ينجو من الهدم بحكم
تبعيته لوزارة الأوقاف من ناحية وكونه أثراً من الآثار من ناحية
أخرى. وجدتنى أهتم اهتماماً كبيراً بهذا الأمر، فنقلت الفكرة

الأولادى نبهت عليهم أن يدفنونى - بعد عمر طويل - بجوار عم
احمد. كذلك نبه عم احمد على أولاده بنفس الوصية..

على أن عم احمد بدأت تنتابه حالات غريبة تكاد تصل إلى
حد الهوس بحالة توقع الموت، وبهذه المقبرة بالذات. لا يمر يوم
إلا ويحكى لى حلماً رآه فى نومة العصر أو نومة الفجر أو نومة
الهزيع الأول، فكل وقت من هذه الأوقات دلالة فى الحلم، فحلم
الفجر وحلم العصر لهما فى نفسه أشد الوقع وأبلغ الأثر. ولقد
تداخلت الأحلام واختلطت فى رأسى فلم أعد أميز إن كان هذا
الحادث أو ذلك وقع فى الحلم أو ذاك، لكننا استرحنا معاً
لتفسير تقريبي واحد لها جميعاً، هو إن أحقية عم احمد فى هذه
المقبرة مشفوعة بقدر إلهى وإرادة سماوية اختارتها له،
واختارته لها. ومن ثم فإن أية مشكلة لن تحدث إذا ما استيقظ
ذات صباح فوجد نفسه ميتاً وذهب أولاده ليدفنوه، لن يتضح فى
هذه اللحظة الحرجة أنه جاء يغتصب حق أحد أو يفرض نفسه
على أحد، لن يتضح أن نعناع قد نصب عليه وباعه الترمای.

إلا أن أهم ظاهرة لفتت أنظار الجميع هى أن عم احمد بدأت
تظهر عليه أعراض التأليف. فقد فوجئت به ذات عصرية يقبل فى
موعده حاملاً كراسة مطوية فى جيب الصدري، وكانت ملامح
وجهه منبسطة فى غبطة كبيرة كأنه كسب البريمو فى لعبة
اليانصيب. ما أن جلس حتى مال نحوى قائلاً:

– «باقول لك ايه يا استاذ! إمبارح كتبت شوية كلام من اللي
قلبك يحبهم! يتهيا لى إنها تنفع قصة قصيرة!...»
قدم لى الكراسية. بشغف هائل فتحتها، فإذا بى أمام صفحة
مكتوبة بالقلم الرصاص لا يمكن قراعتها بأى حال من الأحوال،
كأنها لغة تركية أو عبرية مكتوبة بحروف عربية. لاحظ هو أننى
متعثر فى قراعتها، سحب منى الكراسية:

– «أقرأها لك!»

صار يقرأ، عبارات باللغة العربية الفصحى، لا تقل جمالاً
وسلاسة عن أى أسلوب لأى كاتب من أصحاب الأساليب الأدبية
الجزلة، بل لعلها تمتاز بمفردات حية عبقرية النغم والثراء تدهش
كيف عثر عليها وأين قرأها. إلا أنها محض جمل تدفقت بها
قريحته المرسله عفو الخاطر لحظة وهج وتجل، غير محكومة
بقواعد نحوية أو صرفية، غير مربوطة بسياق عام، لكنك تفهم
عنها افتتاحاً بالصدفة المخلصة، وعظمة الكفاح فى الحياة
بشرف، وأكل اللقمة بعرق الجبين، وفى الكلام ثمة ضمير لمتكلم
يشكر الله على فضله ومننه، ويشيد بدعاء الوالدين فلما أعدت
محاولة القراءة تبين لى أنه كتب المفردات الفصيحة بنطقها
العامى، كتب النطق نفسه..

أبدت فرحتى وحماستى كرد فعل مباشر لفرحته وحماسته

حيث راح يردد:

- «سهرت فيها الليل بطوله كادت تمنعنى اليوم من مروح
السوق! أه يا أستاذ لو كنت تعلمت!

الوليه امرأتى سخرت منى فكسرت مجاديفى ولولاها لكتبت
هذا الدفتر كله! قالت لى: الأستاذ قلب مخك يا راجل قم نم
لتشوف شغلك!!»...

بعدها بأيام قليلة جاعى بقصيدة من شعر العامية، حدثت
أن يكون فؤاد حداد قد هزّه فدفعه إلى تقليده. ذلك أننى كنت
دائماً أقرأ عليه دواوين فؤاد حداد، لأستمتع برود الفعل العنيفة
التي يتركها هذا الشاعر الفذ على مستمع كعم احمد. كان
التأثير أحياناً إلى حد أن يرتعش عم أحمد ينتفض كال مصاب
بالحمى يطلق يصل صيحات الوجد من أعماق أعماق قلبه لدى
عبارة من عبارات ابن حداد أو صورة من صورهِ. فلما استمعت
إلى قصيدة عم احمد وجدتها - لدهشتى - موزونة ومسبوكة
الصياغة متسقة. بصمات فؤاد حداد ومفرداته واضحة فيه
بطبيعة الحال، لكنها مطعمة بمفردات فولكلورية عتيقة وغنية.
القصيدة كانت مدحاً فى صداقتى وصداقة رهط من أصدقائى
الأدباء والشعراء الذين عرّفته عليهم. كان لإعجابى وإعجاب
الأصدقاء بهذه القطعة فعل السحر فى عم احمد، فبات
يكرر المحاولة، أصبح يسمعنى كل بضعة أيام قصيدة جديدة. إلا
أن شيئاً ما فى إعجابنا لم يكن مقنعاً لعم احمد بأننا معجبين

بالفعل. ولا بد أنه كان يستشعر - بشفافيته المعهودة - أننا
نجاهله محض مجاملة، وأنه - بعد - ليس جديراً بالإعجاب
الحقيقي الصافي. لعله كان يتوقع أن يبادر أحدنا فور الاستماع
إلى القصيدة بأخذها لنشرها أو إذاعتها..

لم نعرف إن كان هذا هو السر أم أنه الانشغال بزحمة
الهموم المعيشية - فى نسيانه أمر التأليف، إذ مضى وقت طويل
لم يحدثنى فيه عن محاولات شعرية..

لكنه كان قد بدأ يحدثنى عن هم جديد شديد الغرابة كاد
يعصف برأسى. والحق أننى ألححت عليه كى يتكلم، فقد لا
حظت لأيام طويلة أنه مهموم مغموم مكسور القلب يفقد الكثير
جداً من مرحه المعتاد وبشاشة وجهه الدائمة، حتى ظننت أنه
يتعرض لكوارث ضخمة يتحرج من ذكرها، فكان لابد أن
أستدرجه للحديث عما يكره. فإذا هو يقول:

- «صراحة يا أستاذ قلبى مهموم وكربان قوى من ناحية
الطربة اللى اشتريناها!!»

- «لقد اتفقنا على أنها بركة ورتك! هدية جاعتك من السماء!»
فبعد تردد قليل، وبلهجة تنضح مسكنة ورهبة وتوجسا
استدرك:

- «قلبي يا أستاذ هو السبب! أصبح يحدثنى فينفض جسدى

نفضاً كما يحدث الآن! حتى انظر!!»
فوجئت بأطرافه ترتجف، وثمة شحوب يعلو وجهه. سألته
مازحاً:

- «وبماذا يحدثك قلبك يا ترى؟!»..

شوح كصبي ثائر على وضعه:

- «يقول لي إن هؤلاء الجماعة الذين سادفن معهم في هذه
الطربة سوف يستغربون وجودي بينهم! سيقولون لبعضهم من
هذا الذي اندس بيننا؟! من أي داهية جاعنا لينحشر في
وسطنا؟!»..

كتمت ضحكتي:

- «ولماذا يقولون هذا؟!»..

نظر في عيني مستكراً غبائى:

- «يا خال هؤلاء رجال كبار متعلمون! ولد فتوات! إيش اكون
أنا بينهم؟! أطلع ايه انا؟! بتاع سمك وزفاره لا هنا ولا
هناك جاي يفرض نفسه على ناس كبار!!
ميصحش يا أبا! قلة قيمه طبعاً! يمكن قلة حيا! وقلة أدب
كمان!!»..

كان جادا كل الجد في كلامه، لدرجة أنني شعرت به يعبس
دموعه يحاول بشق النفس السيطرة على انفعاله. فكان لابد أن

أخرجه من هذه الحالة بأى شكل. قلت له:

- «يا راجل لا تشطح هذه الشطحات! الأهم من هذا أن تشطح فى شئ مفيد! قصيدة شعر مثلاً! لماذا لم تعد تكتب الشعر؟!»..

فكأنه عاشق حدثه صديقه فجأة عن معشوقته، إذ انتابه خجل عميق دفق الدم والحيوية فى وجهه، ضحك ضحكة جزلة مقطومة. ثم انطلق يسمعنى شعراً جديداً، فى إلقاء منغم مسرحى متقن يعكس افتناناً بالكلمات وباللعبة الفنية من أساسها. مجموعة من المواويل فيها الكثير من وجاهة الرؤية، والإبهار المفاجئ، والقدرة الفطرية على استعمال الجناس والمفردات المتشابهة..

صرت أطرب وأبدى إعجابى بحماسة وحرارة. فإذا هو يبدو كأنه خارج لتوه من الحمام المنعش. خيم عليه سميت من الهدوء والتطامن والأريحية والصفاء. استغرقته هذه الحالة برهة طويلة صامته صمتاً ذا جلال مهيب يضمم الكثير من المرح. جعلت أرقب شروده الجميل، حيث قد صغرت ملامح وجهه عشرين عاماً، ارتدّ شاباً يتلقّى رضاء أبيه على نجاحه فى الشهادة الكبيرة..

بعد برهة أطول، وبعد أن كدت أنسى الأمر، فوجئتُ به ينظر

نخوى متسائلاً فى خجل طفولى متشكك:

- «صحيح يا أستاذ الكلام ده عاجبك بجد؟!»..

بجماسة شديدة أردفت:

- «جداً جداً يا عم احمد! أنت أصبحت شاعراً»

فاذا به يعاجلنى فى لهفة:

- «يعنى الجماعة دول مش حيحتقرونى لما يلاقونى مدفون

معاهم؟!»..

لم أجد رداً سوى البسمة الواجفة، ثم امتد بيننا صمت عميق

غنى كان أبلغ وأكمل من أى كلام.





عدل المسامير

سلمنى أبى إلى المعلم بدر محمود - أشهر وأقدم نجار فى
بلدتنا - قائلاً له:

- «أريد أن تجعل منه رجلاً صاحب صنعه! خذه بالشدة
افعل ما يحلو لك فأنا استغفيت عنه!»

ولكى يثبت صدق قوله، ويشجع المعلم بدر، ويريه عينة من
المعاملة التى يطلبها لى، صفعنى على وجهى بضع صفعات
طيّرت الشرار الأحمر من عيني. أمسكت بعيني ساقطاً فى
الأرض، أصرخ بكل قوتى لعل أوقف ما شبّ فى عيني من لهب.
ولم يكن لذلك ثمة من سبب سوى أننى طلبت الذهاب إلى
المدرسة وهو غير قادر على الصرف، فى نفس الوقت لم أكن
أصلح كنفر للشغل فى الوسية، الأمر الذى جعله يضيق بى
وبوجودى كله كائننى العقبة الوحيدة فى حياته ومانع رزقه.
سمعتة فى الليل الجوانى يقول لأمى فى استنكار يفيض بالهزء
والسخرية فيما أنا متمدّد على حصير فوق الأرض بجوار
إخوتى:

- «مدرسة!! يعمل أفندياً على آخر الزمن! البلد ينقصها
الأفندية! من بكرة لابد أن يتعلم صنعة تنفعه! لابد أن تنكسر
نفسه ليعرف أن الله حق!!».

لحظتها كانت أمى تفلينى، بتسريب يدها المخشوشة تحت

ثوبى المتهرىء، فتمسك بالقملة المنتفخة تلقى بها فى فمها بين
أسنانها فتطرقع. كان صوت الطارقة يصنع إيقاعاً أليفاً لعودة
يدها إلى ضلوعى وخروجها منها. توقعت أن تقول شيئاً لكنها
بقيت صامتة، ربما لأن فمها مشغول بما هو أهم، فدفاعها عن
دمى الذى تمصه هذه الحشرة الخبيثة، لا يشفى غليله سوى أن
تقرش الحشرة بأسنانها، مما شغلها عن قول كلمة تدافع بها
عن مستقبل المهدد بالضياح. حينئذ شعرت بأن يدها قد بدأت
تضايقنى فبدأت أتململ فى رقدتى لأعوق يدها عن السرحان
بين ضلوعى، فما كان منها إلا أن شكمتنى فى فمى بقبضتها
الثقيلة فى غضب، فلما تألمت متأهباً للبكاء قرصتني بعنف
شديد فى فخذى، مدممة من بين أسنانها المطبقة: هُـسْ! إكتم.
فظللت منكتماً حتى خرج أبى لصلاة الفجر فانفتحت فى البكاء.
فكلما تماديت فيه لطمتنى على وجهى لأسكت، فيزداد بكائى،
فيتضاعف لطمها لى مهددة إياى بدفن رأسى فى الكنيف إن
تسببت فى إيقاظ إخوتى من النوم الحلو. عند ذاك تعبت
فاستغرقنى النوم برهة وجيزة ما كدت أشعر براحتة حتى
صحوت على يد تهزئى بقوة. وكانت الشمس طالعة، وأبى واقف
فى الدهليز ينتظرنى. غسلت وجهى بملء كوز من ماء الزير
المثبت فوق قاعدة من الإسمنت فى ركن من الدهليز، ثم أكلت
نصف بئاًوة مع رأسين من اللفت وجرعت كوب ماء، ومضيت

خلف أبى.

رفعنى المعلم بدر عن الأرض بيده الكبيرة الصدئة المليئة
بشعر كثيف، فاشخاً حنكه عن أسنان كبيرة صفراء بارزة فى
تقوس، فبدأ حنكه كشرخ فى قبة ضريح أيل للسقوط. قال:

- «محلا يا محلا! خذنا يا ولد فى عشرة لهجة! أنت لم تشهد
الضرب على أصوله! أنا لا أضرب إلا بالشاكوش خل بالك!».

ثم كلفنى فى الحال بالمهمة التى لابد أن أتمرن عليها حتى
أتقنها. قدم لى صندوقاً خشبياً صغيراً يمتلئ لحافته بمسامير
قديمة صدئة معوجة وملتوية وحلزونية، تم نزعها من خشب قديم
كان أبواباً وشبابيك وطارات سواقى وألواح أسقف. سلمنى
الصندوق وقطعة من قضيب حديدى ثقيل تشبه السندان،
وشاكوش. وأمرنى أن أعدل هذه المسامير واحداً واحداً، بحيث
أمسك المسمار من رأسه الدائرى المبطط، فأثبتته على السندان
وأدق عليه بالشاكوش، مقلباً مسوياً حتى وضعه الأصى ويصبح
قابلاً للدق من جديد فى الخشب.

مهمة ما أشد ثقلها وعذابها. ضربات الشاكوش تتساقط فوق
أصابعى مرات عديدة قبل أن تسقط على المسمار مرة واحدة،
حتى صدئت يدى وتورمت أصابعى وباتت موضع ألم لا ينتهى.
مع ذلك لم يكن شغلى يعجب المعلم بدر، الذى كان يحلوه
مراقبتى من بعيد، لأفاجأ بيد كالمرزبة تسقط فوق قفاى

فتكفؤنى على وجهى:

«إعدل المسمار بذمة! تمكث نصف يوم في عدل عشرة

مسامير؟!»

تظل يدي بعد ذلك ترتعش، يتضاعف المسمار الواحد بين أصابعي من خلال الدمع المنسكب، فأمد ذراعي لأمسح عيني بكم جلبابي القذر الملى بالعرق والوسخ. لكنني وإن دُرِبت على عدل المسامير جيداً، لم أكتسب السرعة المطلوبة، مما كان يعرضني للضرب بكافة الأسلحة المتاحة: بيد الشاكوش الخشبية فوق جبهتي وأصابعي، بخيرزانة تساق بها الحمير، بمرينة من الخشب على ضلوعي، بالفارة تقذف في صدرى من بعيد، بصندوق المسامير نفسه، بروث البهائم، ببراد الشاي، فما زادني كل ذلك إلا لخرةً وارتاباً.

مضيت وراء المعلم بدر محمود أحمل المنشار معلقاً في كتفي كالبنديقية، والفارة في يدي، والقادوم والشاكوش في اليد الأخرى. كنا مشغولين طوال الأيام الفائتة بتركيب «مقعدين» - يعنى حجرتين فوق دار كبيرة - من خشب البغدادلى. والمعلم بدر أروب في هذه الصنعة، يصنع الجدران في الورشة وهي عبارة عن مجموعة من مرائن من الخشب المتين يكسوها بشرائح رقيقة من الخشب. تنتقل الجدران إلى الدار التي ستركب فوقها، ويكون المعلم بدر قدحفر لها جيوباً في حافات

الجدران تستقر فيها. ثم يرفع بالحبال، فيثبتها في جيوبها ثم يساندها بمداميك من الحديد والمسامير البرمة والحدادي تربط الجدران ببعضها وتربطها بأرض السقف ربطاً محكماً، ثم يمدّ فوقها عروق الخشب، ومن الداخل - بواسطة السلم النقالى المجوز- يثبت فوق العروق القريبة من الجدار لوحاً من خشب الأبلكاش يتسلقه فيتقرفص فوقه ليدق فيه المسامير جيداً. وحينئذ يتعين على أن أصعد إليه حاملاً العدة، لألقى بجواره أناوله المسامير وقطع العدة حسب أولوية احتياجاته إليها، بحركة تمرنت عليها جيداً..

كناقد انتهينا من إقامة الجدران الخشبية في دار الحاج سيد شعوط وبعد صلاة العصر بدأنا في تركيب ألواح السقف وسط لمة كبيرة من الصبيان والرجال الخارجين من صلاة العصر في جامع العصاورة المواجه للدار، حيث كانوا جميعاً مبهورين بهذا التطور الذى أصاب دار الحاج شعوط فجعلها سراية من طابقين عاليين، فما بالك بها بعد ما يتم تغفيق هذه الجدران الخشبية بالطلاء الملون. صرت أتجنب النظر إلى الأرض من هذا العلو الشاهق، وأتوجس من وجه المعلم بدر الذى يكفهر في العادة بعد العصر إذ يتأخر عليه الولد الذى ذهب ليشتري له قطعة الأفيون من السيد الجمال في عزبة صباح. صارت العفاريت تنتلط على وجهه، والريالة تغرق شفثيه والبرابير تسيل

من منخرية بفزارة فيمسحها بكم الفائلة المتسخة فيما هو
منخرط مع ذلك في دق المسامير في ألواح الأبلكاش بحرفة
وثبات، لكنه يصب غضبه على أنا وحدي:

- «تحرك! تلحج! الشاكوش يا ابن اللوطي! هل أنا طلبت
الشاكوش؟ قلت القادم يا حيوان! هات الكماشة بسرعة!».

ذلك أن مسمارا ينعوج تحت دقاته العصبية السريعة. أناوله
القادم أولاً حسب طلبه، فيصك جبهتي بيده الخشبية السمكة
الصلبة صكة يطير لها مخى، ثم يرميه بجواره. من فرط الارتباك
تختفى الكماشة عن عيني في تلك اللحظة فألف حول نفسي
كالدائخ أكاد أنزلق من بين عروق الخشب.

قرب المغرب جاء له الولد بسنة الأفينون، فأصر المعلم بدر
على الانتهاء من تركيب السقف على ضوء الكلوب، فأضيفت إلى
مهامي مهمة جديدة هي تقريب الكلوب منه كلما ابتعد عنه، في
حرص شديد حتى لا تقع الرتينة ونضطر لشراء غيرها ونضيع
الوقت في إعادة إشغاله. ولكن ما أخشى منه يقع دائماً، فمن
لهوجتي مددت للمعلم الكماشة فلطشت الرتينة فأسقطتها،
فتحشرج صوت الكلوب ثم انطفأ. انزويت مرتعشاً في مكان
بعيد أنتفض من الخوف إلى أن جئ برتينة جديدة تم تركيبها
وتكفل أحد الرجال بمهمة الإمساك بالكلوب حتى انتهى تركيب
السقف.

وكنْتُ أظن أن المعلم بدر تجاهل عقابي، لكنه قبل أن يهبط
عن السقف إلى سقف الطابق الأول أشار لي فاقتربت، فأطبق
بيديه على قدمي، ثم برم ذيل ثوبي حولهما بإحكام، أمسك به،
دفع بجسدي إلى الفراغ، رأسي في اتجاه الهاوية وقدماي
مصلوبتان إلى أعلى، فيما راح هو يصيح من بين أنيابه:
- «هيه! أرميك على جدور رقبتك؟!»

تذهب صرخاتي أدراج الرياح، إذابه يمسك ذيل جلبابي
المبروم، يضعه فوق لوح السقف، يثبت فيه مسماراً،
وبالشاكوش يدقه في لوح الخشب، أتبعه بمسمار ثان فتالث
فرابع، ثم تركني معلقاً من قدمي وجسدي يتطوح في الهواء،
ونزل يعدل طوق جلبابه مشعلاً سيجارة. وفيما كان يخرج من
باب الدار متوجهاً إلى داره البعيدة نظر إلى أعلى في اتجاه
رأسي المدلى صائحاً بأنه - عقاباً لي - سيتركني هكذا حتى
الصباح!

وها قد مضى على ذلك الحادث خمسون عاماً، ولكنني منذ
ذلك التاريخ وحتى اليوم أشعر بأنني لا أزال معلقاً في الهواء من
ذيل جلبابي: قدماي مصلوبتان في وجه السماء ورأسي يتدلى
في اتجاه الهاوية

تم التحميل من
مكتبي



سمك مشوى

لم يكن سهلاً علينا أن نغادر مدينة السويس. والأصعب على النفس أن نغادرها وحدنا بدون أبى. لكننا مع ذلك غادرناها ذات لحظة واجمة تجمد فيها كل شئ. الزمن والهواء والماء فى وجوه أمى وإخوتى. غرقنا فى ذهولنا يوم تأكدنا من النكسة ومن أن الجيش المصرى قد تاه وتشرد فى الصحراء بدءاً وأن جميع مطاراتنا الهشة قد تم تدميرها قبل أن يبدأ تدمير بيوتنا..

كالأوزة المهیضة الجناح تجولت أمى فى كل أنحاء الشقة مرات لا حصر لها، أتت فى كل مرة بشئ جديد نسيت وضعه فى الجولة السابقة حتى فرد الشباشب القديمة التى تقذف بها القطط وتسحق الصراصير عبأتها فى الصرة الأخيرة التى لم تربطها بعد، فيما تعلقناها صامتتين جالسين فوق البطاطين والألحفة والمراتب والوسائد المبرومة المربوطة الممددة كجثث قتلانا فى شوارع المدينة وكل حواريتها تنتظر من يرفعها، وقالت لأبى المتقرفص على عتبة الباب مستغرقاً فى شروده الحزين مرتدياً بدلته الصفراء الكالحة التى يتسلمها كل عام من هيئة السكك الحديدية كعامل دريسة وكانت يدا أمى ممسكتين بأطراف الصرة استعداداً لربطها:

- «هيه! راجعت نفسك؟!»

- «نعم!»

قالها مبتورة غامضة غاضبة..

- «ستجئ معنا؟»

- «لا!».

خرجت من فمه دون أن يحرك شفثيه، حاسمة قاطعة ونهائية. في الحال شرعت أمي تربط الصرة بعصبية شديدة كأنها تقفل على الموضوع إلى غير رجعة. وكان وجهها الفلاحى العتيق المدور قد تكورت وانعجنت فى بعضها. صارت قامتها القصيرة السمينية المدملجة تهتز وهى تقرط على الرباط بقوة تعقد فوق العقدة عقدات. من يراها لا يقتنع أن هذه الشابة النشطة القوية العضلات قد أنجبت خمس صبيان أصغرهم أنا فى معهد الخدمة الإجتماعية وأكبرهم حلاق سيدات كسَّيب أغرى إخوته الثلاثة الباقين بالانتساب إلى نفس المهنة، وثلاث بنات تزوجن فى بلاد مختلفة..

أخى الكبير محمد جاء بالسيارة. فوجئنا به يصعد فى صحبة التبَّاع قائلًا: «لا يجب أن يسرقنا الوقت!». فشرع التبَّاع يحمل أول لفة فراش على ظهره بمساعدة إخوتى، فقال أبى كأنه يريد أن يكسّر مجاديفنا بالخوف فلربما تراجعنا عن الرحيل:

- «ربنا ينجيك من الغارات! إبعدوا عن طريق الكنال!»

قالت أمي:

- «الرب واحد والعمر واحد!».

-
- «صدقت! ولو كان مكتوباً لنا الموت لمتنا من وقت طويل
فات! هذه أعمار بيد الله! دانة المدفع كانت تمر لصق دارنا
لتدخل دار الجيران!».»
- «وفي المرة القادمة تصطادنا بعد أن صارت شقتنا
عريانة!».»
- «إنها أفضل من الشحطة والبهدلة في بلاد الناس!».»
- «الحمد لله أن لنا أهل في بلدة دمليج منوفية نذهب
عندهم!».»
- «غدا يضيق الأهل حتى بأنفسهم!».»
- «نقطننا أنت بسكوتك!».»
- «ربنا معكم! سلموا على بلدة دمليج بحالها وخصوصاً
أهلك كلهم!».»
- «لن أسلم على أحد!».»
- «أه! أنت حرة! الله الغنى!».»
- «من يريد أن يسلم على أحد يروح بنفسه يسلم!».»
- عند ذاك لاذ أبي بالصمت، صار يتفرج على العفش وهو
يخرج قطعة قطعة. أخيراً نطق:
- «طب وهدومي؟!».»
- «ها هي!».»
- وأشارت إلى صرة جنبتها فوق ملة السرير الخشب الذي
-

صار عارياً كجسد عجوز شكله منقر.

وكنت آخر المنصرفين، فراقبت أباي وهو يشيع الجميع
واحداً واحداً، ومنع كل واحد تنهار من ملامحه كتلة من الدماء،
حتى بدا أصفر الوجه متغضن الملامح تعيساً ضعيفاً مهزولاً،
كطفل تركه أهله في صحراء موحشة، وقد تحجرت الدموع في
عينيه من فرط الرعب. ثم انتبه لوجودي، فردت الدماء في
ملامحه قليلاً. لاذت بي نظراته المتلهفة وأنا أغادر باب الشقة.
طفرت الدموع من عيني، ودوى في الفضاء هدير القنابل
الصاروخية فزلزلت الكون كله وانتفضت أنا كريشة في مهب
الرياح، في حين بقي هو متجمداً في مكانه لا يقوى على الحركة،
مع أن الجدار من خلف ظهره قد ارتج. وجدتنى أقول له فجأة:
- «سأبقى معك! ما يجري عليك يجري عليّ!»

هتف كمن ردت فيه الروح:

- «راجل زى أبوك! إن شاء الله انت اللي حتنفع فيهم!»
شعرت كأنه يرشونى ليغرينى بالبقاء، فثمة رعشة في صوته
أنبأتني بأنه رغم ترحيبه ببقائي خائف على من هذا البقاء.
جريت إلي الشباك المطل على الحارة، فتحتته وصحت بأعلى
صوتي:

- «سأبقى مع أباي! توكلوا أنتم!»

لكن السيارة كانت تحركت بالفعل ظناً منها أنني ركبت

معهم، فلم أكرر صيحتي. أغلقت الشباك وجلست في مواجهة أبي وقد شعرت أن خيطاً ما كان يربطني بالحياة قد انقطع وانتهى الأمر. نبت في ذهني خاطر يشي بأنني ربما نجحت في إقناع أبي بعد يوم أو يومين بالرحيل، معزياً نفسي بأنه لا بد سيضطر إلى الموافقة رغماً عنه بعد أن تزداد الحالة سوءاً، سيما وأن القصف العنيف لا يتوقف إلا ليعطي الناس وهماً بالتوقف لكي يستأنفوا الحياة فينقض عليهم من جديد..

غرقت المدينة في جب ظلام حالك ذي سقف سميك تلمع فيه بوارق اللهب الخاطف وكأن مرده الظلام يخرجون ألسنتهم الساخرة العبثة. ما أن يختفي بريق اللهب حتى تتفجر السماء من فوقنا من تحتنا من حولنا ورائحة البارود ممزوجة برائحة الخوف برائحة عواصف التراب العطن المتصاعد من جوف هديم متراكم لا يننى يتجدد بلا نهاية. طعم التراب والدخان يبقيان في حلقي في أنفي في صدري، تراب عتيق لزج رطيب زنخ كعرق العبيد. لدوى الانفجارات طبقات صوتية متعددة ذات ترددات تنداح في الأفق لترتد عائدة وقد ضوعفت وازدادت كثافتها فتضرب جدران البيت في مقتل. تتفجر الثواني والدقائق تتفتت تتبعثر يستطيل عمر الرعب. دُرِّبَت أذني على تمييز صوت انشراح الفضاء من صوت انفجار القنبلة من صوت انهيار الجدران على الأرض وانكفاء عمائر بأملها فوق بعضها

البعض، ما بين حين وحين يعبث الهواء المسموم المليء بالخبث بصوت صراخ بشرى ما يلبث حتى ينكتم في الحال، وعويل نساء يتطاير مترنحاً في الهواء كطائرات ورقية سرعان ما يصادفها التحليق فالإختفاء التدريجي، مثلما تعجز أقدام العماليق عن دس جحور النمل في سيرها تخطئ صواريخ الطائرات وحاملات القنابل أعشاشنا القزمية الحائلة المندسة في أمعاء المدينة، معظم ما انهار من دور في حوارينا زلله صوت انشقاق الهواء فحسب أثناء ارتحال القذيفة إلى مستقر لها..

كل ذلك وأبى متقرفص في مكانه المفضل بجوار الباب فوق فروة خروف كان قد ذبحه يوم فرجه ليلة دخلته على أمي منذ ثلاثين عاماً. ما يكاد ينتهي من تدخين السيجارة حتى يسرع بلف غيرها مطمئن البال طالما أن جميع النوفذ مدهونة بالأزرق القاتم. لاينى يردد مع كل قصف: «طيب! طيب يا أوساخ يا أولاد الوسخة! إفتروا زى ما انتوا عاوزين ما هى آخرتكم قربت! واد يا حسن! يا ترى أمك خدت معاها المطبخ كله؟!»، قلت: «ما أظنش»، ونهضت في الحال هرولت إلى المطبخ وجدت كل شئ كما هو: البوتوجاز والثلاجة الثمانية قدام والمطبخية بكاملها والحلل الألمومنيوم، أمي التي جبلت علي الحنان تركت على سطح البوتاجاز حلة أرز، رفعت غطاءها فوجدتها ملانة

بالكشرى بعدس أصفر، فوقه عشر بيضات مسلوقة مقشرة
ليتعشى بها أبى إذا ما أصر على البقاء أو تأخذها إذا وافق
على المغادرة. تذكرت أنتى جائع وأن أبى لم يأكل طول النهار.
جئت بالحلة وملعقتين، تقرفست أمامه وهى بيننا. أكلنا وصوت
القصف يزحزح الحلة فنعتقلها بيد الملعقة أو نسندها بيدنا.
حاول أبى أن يستدرجنى للانبساط، قال باسم: «ما ألد أن
تموت وأنت تأكل!»، ثم مسح شاربه الكثيف المسترخى على
جانبيه شفتيه، واعتدل فى قعدته راح يبرم سيجارة من غلبته
الصفيح الممسوحة المتغضنة، قال:

- «أما لو كباية شاي قبل الصواريخ ما تفرتكننا؟ على الأقل
نموت ومزاجنا معدول! أنا أصلى باحب السويس دى قوى ياد يا
حسن!! هى عندى زيكم بالضبط يمكن اكتر ما اعرفش ليه لكن
أهو باحبها وخلاص! كل اللى أعرفه عن تاريخها إن ابويا خدته
السلطة مع ناس كتير عشان يغطوا الكنال! وما رجعش من
يومها يعنى أنا ما شوفتوش أصلا!! الكلام ده كان حوالى سنة
١٩١٠ وكان ابويا لسه عريس! أبوه ما كنش عنده غيره وجوزه
بدرى عشان يفرح بيه! يا دوبك حط بذرتى وتانى يوم خدوه
الغفر ما رجعش!! لما كبرت قالو لى! جيت من المنوفية على هنا
قلت يمكن الآقيه واتعرف عليه جايز تكون واحده من بنات البندر
لاقب عليه وخدته!! إيش قوالك ياد يا حسن إنى قعدت سنين

طويله يتھيا لى إنى حاقبله؟! وكل ما يصادفنى واحد يشبه
أوصافه آخذ وادى معاه فى الكلام ألاقية مش هوه مع إنه يشبه
له فى كل حاجة سمعتها عنه! يعنى أقول وهوه مش هوه لكل
واحد أقول هوه يطلع مش هوه! ومش هوه يمكن هوه!! قول لقيت
لى ييجى سبعة تلاف تمنى تلاف أب هوه ومش هوه!! لكنى حببت
الكنال! والسويس! ربنا رزقنى فيها! وظيفه فى الحكومة
واتوظفت! شغل فى المينا بعد الظهر واشتغلت! لولا كده ما
كنتش قدرت أتجوز أمكم ولا أخلفكم! إدتنى كل حاجة طلبتها
من ربنا واتمنيتها!! وأول ما تقع فى وكسه زى دى أسيبها
وامشى؟! دى حتى تبقى قلة أصل! مش فيه ناس هنا من أهالينا
بيحاربوا؟ دول مش لازمهم حد يخدمهم ويقدم لهم مساعدة؟! إذا
كان ولاد القحايب اللى بالى بالك سابوها وهربوا نعمل احنا
زيهم؟! وطربة أبويا اللى ما شفتوش ما يحصل أبدا أبدا!!..

«كنا قد شربنا ثلاثة أدوار من الشاي الثقيل المخروط على
الوابور السبرتو حينما تناهى إلى سمعنا صوت أذان الفجر
بيعته ميكروفون قادم من جهة سيدى الغريب. صاح أبى فى ورع
وابتهاج:

— «الله أعظم والعزة لله! لسه البلد فيها ناس اहे
يا حسن! الحمد لله إن ربنا لسه موجود والكنابل
مقدرتش تسكته! إيه رأيك يا ولد نقوم نصلى

وندعى يمكن ربنا يعطل الطيارات دى ويهدا شويه؟

ما تخافش حنصليه هنا! بس نقوم الأول نتوضا!»

فوجدنا أن المياه مقطوعة عن الصنابير مثلما انقطعت الكهرباء عن المصابيح. أفرغ أبى مياه القلة الفخارية - المغمم بالشرب منها - فى زجاجة من زجاجات التلاجة حتى لا تضيع فى الرشح. ودعا لأمى دعوتين حاريتين لما تبين أنها عملت حسابها فملأت بعض الجراكن وركنتها تحت حوض الحنفية..

لأول مرة أركعها، وخلف أبى، فكانت صلاة مهيبة إلى أقصى حد، وكان صوت أبى وهو يتهدج بقصار السور التى يحفظها يزيدنى رهبة وجدية واقتراباً حقيقياً من الله فى تلك اللحظة الجهنمية بكل معنى الكلمة. بعدها أخلدنا للنوم فى مطرحنا، فإذا بى أجدنى مندساً فى زحام هائل تبينت أنه مولد كمولد السيد البدوى وكنت فرحاً نشواناً إذ أجرب قوتى فى دفع قطار البمب فتتوالى المفرقات فانتقل إلى التنشين بالبنادق على البمب أيضاً فلا أخطئ الهدف فأصيح فى كل مرة صيحة انتصار ضاحكة فيما يصفق لى المتفرجون..

حينما فتحت عيني كانت الشمس تصهر اللون الأزرق على الزجاج تتسرب من مسامه ومن فتحة الباب الذى تركناه مفتوحاً. نهضت جالساً فلم أجد أبى بجوارى، بحثت عنه فى أنحاء الشقة فلم أجده. بيد مرتعشة فتحت الشباك المطل على

الحارة فهالني منظر الخراب المتوحش، في البعيد الذي انكشف أمامي لم أجد حارتنا، بركت البيوت ركعت على الأرض هديما متكوكا فانفسح المدى أمامي. رأيت جدران عمائر هائلة تقوضت فباتت فراغات الحجرات بما فيها من أسرة ودواليب وغرف جلوس وسفرة، بانث مطابخ ودورات مياه مبقورة البطون، وعمائر أخرى انعوجت وتكسرت قاماتها، أذرع وسيقان وأدمغة تبرز بين أكوام الهديم وكلاب ضالة تحوم حولها، حقائب مدرسية وأنايب غاز، حلل وأطباق مهشمة، أجهزة تليفزيون أمعائها في ناحية وصناديقها الفارغة في ناحية، جدران داخلية تظهر من طوابق الفجوات ملونة بالأخضر والوردي والكرمي الكالنج، معاطف وقمصان نوم علقت أثناء طيرانها في شبكات الهوائيات المغروزة في كثران الهديم كخيال الماته. إنكسر قلبي، هوت نظراتي تبحث عن أرض حارتنا، نبت من خلف الهديم المواجه رأس سرعان ما تبينت فيه رأس أبي، أخذ الرأس يعلو على رقبة، والرقبة تعلو على كتفين مقفعين ليظهر صدر البدة الصفراء محاطا بذراعين يحتضنان لفة كبيرة من ورق شكاير الإسمنت تطل منها أوراق خضراء لعلها من شجر الموز أو الخروع، عندما اكتملت قامة أبي فوق سنام الهديم صار بإمكانى - في وقفتي في شباك الطابق الرابع - أن أصفحه، بل صار بإمكانه أن يدلف داخلا من الشباك، ميلت جذعي كله

ناظراً في الأرض أبحث عن الباب الذي خرج منه، فإذا الهديم قد أكل مساحة الحارة وامتدت الأحجار وقطع الطوب إلى عتبة بيتنا من الداخل فحمدت الله أن أمي لم تر هذا المنظر، وحمدت لها رجاحة عقلها وإصرارها على ضرورة الرحيل في لحظة ملهمة. اقترب أبي كثيراً من الشباك فانخفض قليلاً. رفع ذراعيه الطويلين إلى أعلى باللفة، فممدت ذراعي عن آخرهما وتلقفتها منه في حرص شديد فإذا هي كما توقعت لفة سمك طازج سخى شهى: بلطى وبورى وبياض ودنيس. قال بعد أن أطمأن إلى سلامة وصول اللفة، في فرح طفولى بهيج:

- «وريني شطارتك بقى يا حسن! فاكرا امك بتشويه

ازاى؟ زى ما كانت بتعمل بالضبط إعمل! مش

باقول لك البلد لسه فيها ناس؟ لقيت تلاته من

زمايلي مارضوش يهاجروا! فرحت بيهم حلفت

طلاق تلاته لاعزمهم على الغدا!! ساعة ولا

ساعتين تلاته بالكثير وحنيجى نتغدى! إسمع!

إسلق لنا شوية رز! ضرورى تكون بتعرف! يلا

يا بو على ما تضيعش وقت!»

وقفل عائداً يتسلق الهديم يتعثر في نتوءات صلبة. فرحت

بوجود شىء أنشغل فيه. جعلت أستعيد منظر أمي وهي تنظف

السماك جيداً تشق بطنه تستخرج أمعاءه تحتفظ بالبطارخ تحشو

البطن بخلطة الثوم والحباش تشعل النار تحت قطعة الصاج العريضة حتى تلتهب ثم تغمس السمك فى النخالة وتضعه فوق الذهب. قمت مثلها بتنقية الأرز وغسله قلوت حفنة منه فى السمن ثم أضفت البقية وزودته بالماء وخفضت شعلة النار تحته وانصرفت لأشوى السمك

فرشت طبق الغرف الكبير بالورق الأخضر، رصت فوقه السمك المشوى فى منظر بديع، كان المطبخ ملتصقا ببلكون صغير محندق يطل على منور البيت، فيصنع مع بلكون المواجه تقابلاً أليفاً حميماً. دخلته، إرتكنت بمرفقى على حافة البلكون المبنية بالطوب المغفق بالإسمنت. تذكرت زوجة جارنا الطيبة أم ألفت وهى تنشر غسيلها فوق هذه الحبال التى لاتزال ممتدة حول بلكونهم هذا، وكيف كان يحلولى استراق النظر من المطبخ إلى جسمها البض وأفخاذها وأردافها الممتلئة وقد التصقت عليها الثياب المبلولة بماء الغسيل. أين تراها الآن قد هاجرت بأولادها وزوجها العجوز الذى يعمل كناساً فى البلدية؟ أتراها تتحول إلى عاهرة فى بلاد الناس والغربة؟ طوال سنى جيرتها لم نعرف لها أهلاً ولا بلداً فأين تكون قد ذهبت وتركت كل شبابيكها مفتوحة يحيط بها الهديم من ثلاث جهات؟ أصبح بلكونها مزرعة للقطط الضالة تتعارك فى شراسة وجلبة هائلة.. دقت الساعة فى مذياع مجهول المكان واهن الصوت ثم

انبعثت موسيقى نشرة أخبار الخامسة ثم ما لبثت أن اضمحلت تماماً. كل هذا الوقت مضى ولم يأت الضيوف بعد؟! حملت طبق السمك، وضعته على حافة البلكون. خيم علي المدينة سكون خرافى عميق ما أن أدركته حتى اندفع القصف فاستمر بغير انقطاع لمدة طويلة ارتفع إلى ذروة كثيفة ثم كف تماماً لمدة طويلة جداً. مضيت نحو الشباك أستطلع قدوم الضيوف. جابهني الدمار تسطع فوقه الشمس المحمرة، ليس ثمة من بشرى على الإطلاق. إذا بقلبي يسقط فى أثر دوى هائل خلف ظهرى ارتجت له الأرض لكنه لم يكن قصفاً. استدرت فزعاً وقد نشف ريقى غاضت الدماء فى عروقى، إنه صوت سقوط شئ ثقيل على أرض المنور. توقعت أن يكون طبق السمك قد اختل توازنه فسقط. اندفعت أجرى إلى البلكون. وجدت الطبق كما هو فى مكانه، وطابور من القطط يقعى متحفزاً فى مواجهته على حافة البلكون. نظرت فى أرض المنور، رأيت قطعة سميكة مجندلة على الأرض فاقدة الحياة رافعة أرجلها إلى أعلى، فعرفت أنها حاولت القفز من بلكون جارتنا إلى طبق السمك فلم تقو على قطع كل هذه المسافة فسقطت فى الفراغ مهشمة الرأس. عدت إلى الشباك أنتظر. إن هى الا دقائق حتى هزنى الدوى ثانية بنفس القوة، فاندفعت أجرى، فإذا بقطعة أخرى حاولت نفس المحاولة فلقيت نفس المصير. ما كدت أعود إلى الشباك وأستقر فى

وقفتى حتى دوى الهبد مرة ثالثة، فلم أتحرك، ثم رابعة،
فخامسة، فسادسة. فى المرة السابعة قررت نقل السمك إلى
داخل المطبخ. وجدت طابور القطط مجند لكه على أرض المنور
فاقد الحركة، وثمة طابور آخر يتهاى قادماً يتسلل من داخل شقة
الجاره المهاجرة. وكان القلق يرتفع فى داخلى يدق رأسى
بمطارق حاده، وثمة رائحة حريفة تقبل من مكان ما منذ ساعات
مضت فتطبق على صدرى تصيبنى بالكآبة والرعب القاتل، رائحة
شواء هى الأخرى، شواء جلد بشرى يحترق. الشمس فى الخلاء
قد اصفرت ثم شحبت، ورائحة الاحتراق قد سكنت كل شعرة
فى أنفى. شعرت أن البيت يضيق حولى تتقارب جدرانها تكاد
تسحق عظامى بينهما. بحثت عن صندلى، وضعت قدمى على
عجل. نزلت. خرجت بصعوبة من باب الشارع الذى كان الهديم
يزحف عليه شيئاً فشيئاً حتى كاد يسده تماماً. تسلقت الهديم،
مضيت فوقه، هبطت من الجانب الآخر. بحثت عن الشارع
الموصل إلى بوفيه «سوكا» حيث يتجمع عمال إلسكة الحديد،
عجز رأسى عن استعادة الخريطة القديمة لكننى مشيت فى كثير
من المنعرجات، والرائحة الكريهة تتعاضم. اصطدمت بجثة
متفحمة تماماً، على مبعده أمتار منها تعثرت فى جثة أخرى
سيححتها قنابل النابالم فبدت كالبيض المقلى النازل لتوه عن
النار يطش فى الدسم. أدت بصرى عنها بسرعة، فصدمنى

منظر جثة ثالثة تكورت على نفسها شوهاء فى حفرة عميقة. على مقربة منها أشلاء مبعثرة على مساحات متباعدة. بقلب متهرئ صرت أنحنى على كل شلو من الأشلاء أتفحصه بعين ثاقبة هالعة. كانت هى الأخرى تكاد تتحلل، وصوت أبى یرن فى أذنى «أقول هوہ یطلع مش هوہ! ومش هو یمكن یكون هوہ؟!». اختطفت عینى فردة حذاء مرمية إلى بعيد، جريت نحوها، رفعتها، إنها تشبه حذاء أبى. أرعدت السماء فانبطحت أرضاً وطارت فردة الحذاء وامتلات الدنيا كلها بالغيار والدخان. ما أن سكت صوت القصف حتى قمت مسرعاً أجرى نحو فردة الحذاء یحدونى الأمل فى التعرف علیها جيداً. ثم أخذت أجرى بأقصى سرعة، یفضى بى الھدیم إلى شوارع مرصوفة، تفضى إلى ھدیم، حتى خرجت عن المدينة فى اتجاه الطريق الزراعى. وبعد ساعات طويلة من اللهاث المضنى أفقت على نفسى جالساً فى عربة من عربات الأریاف متجهة إلى بلدة دملیج، ممسكاً فى یدى بفردة حذاء كالحة.





الشفق

خطفت عينيه وهى مقبلة نحوه فى الشارع المزدهم، كانت
رشيقة القوام منحوته الجسد بأزميل ربانى جسد كل معالمه
بحدة ونعومة، عريضة الكتفين بارزة النهدين نحيلة الخصر
داخل فستان بنوتى زاهى اللون يجمع بين الأحمر والرمادى
الفاتح، يكاد جنبها الأيمن يختفى تحت إبط شاب سمهرى
القوام يرتدى سترة جلدية سوداء على سروال رمادى فاتح، يبدو
من رشاقة جسده ووقع خطوه المنضبط كرياضى مفتون بنفسه.
وكان من الواضح أنهما فى المراحل الأولى لأيام الخطوبة.

تابعهما بنظرات حانية وهما يشقان بحر الزحام على
الرصيف الممتلئ بالمارة والباعة والبضائع. تعلق نظراته
بوجهها القمحي المضى بمسحة من البراءة الشهية، شغرها
الباسم عن أسنان ناصعة البياض دقيقة، وخصل من شعرها
الأسود الغزير تصنع فوق جبينها مظلة تكسر حدة البريق فى
عينيهما. نهض الحلم القديم فى قلبه. إنسابت من صدره زفرة
حارة: ترى هل يخبئ له الحظ السعيد امرأة كهذه؟ نعم لابد أن
تكون كهذه، هذا النمط بالذات هو حلمى الأزل، واسوف يعطيها
ذراعه لتتأبطه هكذا، سيمضى بها إلى كل مكان فى المدينة
يفرجها على المسارح والملاهى والسينمات، من ساعة الأصيل
حتى بعد منتصف الليل، ليعود بها إلى البيت ممتلئين بالنشوة

والصفاء، سيدّخر كل شوقه للحظة الوصول إلى البيت، عندئذ
يحتويها في حضنه تاركاً بدنه يذوب في هذا الجذع الطويل،
يقودها إلى غرفة النوم ليخلع ثيابها قطعة قطعة على مهل شديد
ربما على امتداد الليل كله، فيتعانق ضوء الجسد الناصع مع
ضوء الفجر الساطع. يجب أن يكون البيت جميلاً مثلها. لسوف
يبذل كل ما في طوقه من جهد ليحصل على شقة في عمارة
محترمة مكونة من ثلاث غرف وردهة كبيرة، الأنترية في المدخل
قرب الباب مباشرة، في نهاية الردهة ترابيزة السفارة والبوفيه
ودولاب الفضيات الزجاجي، غرفة للصالون، غرفة للنوم، غرفة
للطفل مع الخادمة، نعم يجب أن يكون لديه خادمة تُعنى بالطفل
وتشتري الخضروات من السوق وتجنب زوجه مشقة العمل لتظل
دائماً أبداً نظيفة مشرقة مُهيأة، يستحسن أن يجلب هذه
الخادمة من بلدتهم، يا حبذا لو كانت امرأة ريفية عاقلة. يستيقظ
هو يوم الجمعة فيجد أشعة الشمس تصافح البراويز فوق
الحوائط، نعم يجب أن يكون ثمة براويز تحتوى على لوحات
وصور، وتكون الستائر قد انزاحت على الجانبين. لابد طبعاً أن
تكون ثمة ستائر مخملية. من الأفضل أن يكون هناك ستائر
بيضاء رقيقة وأخرى مخملية ثقيلة فوقها. لسوف يدخر جيداً،
لسوف تكون زوجه هذه مديرة وخبيره بمثل هذه الأشياء

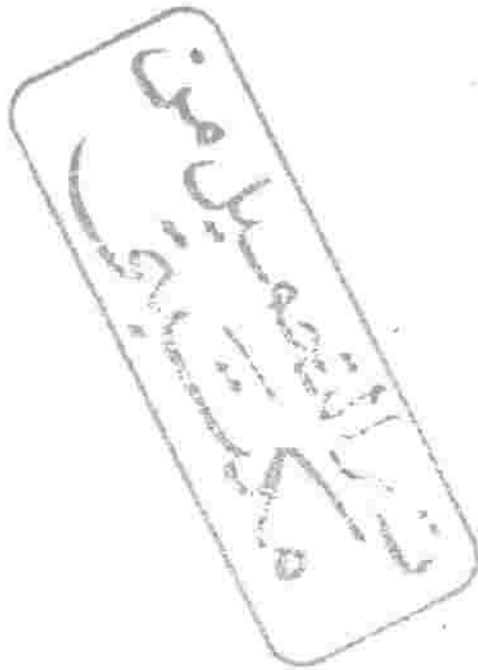
الضرورية، فهي لا شك من عائلة مستريحة ومن بيت يعرف الستائر والسجاجيد. لابد أيضا أن يكون عنده روب دى شامبر يلبسه فوق البيجامة المتسقة المخططة ذات الياقة والأساور الحابكة. لن يسمح بإقامة عرسه إلا بعد أن يستكمل هذه الملابس الداخلية، وخاصة هذا الروب دى شامبر، ما أجمل أن يلف حزامه حول خصره ويجلس فى الردهة تحت أشعة الشمس يقرأ الجرنان مع فنجان قهوة وسيجارة يأتنس بصوت زوجه فى المطبخ تشرف على اعداد وجبة الغداء: خضار باللحم والأرز والسلطة الخضراء. المطبخ طبعاً لابد أن يكون فيه موقد بالبوتاجاز، وثلاجة ثمانية أقدام، وفى الحمام غسالة كهربائية وبانيو وحيطانه بالقيشانى. ليفعل مثلما فعل زملاءه، يشتري كل ذلك بالتقسيط من شركة إيديال. لقد تخرج فى الجامعة وحصل على بكالوريوس تجارة وأصبح موظفاً حكومياً محترماً يثق فيه أصحاب المحلات. نعم! نعم سيفعل كل هذا بعون الله، ولكن متى يحين الحين؟ كل شىء بأوان، فليصبر قليلاً كما صبر طويلاً..

وكان يشعر أن هناك امرأة تسير خلفه عن عمد، تحاذيه أحياناً يفصلها الزحام عنه معظم الأحيان. كان يبدو عليه كأنه يعرف أن امرأة تلهث وراءه حتى لا يتوه منها. كذلك كان يشعر

فى أعماقه البعيدة بأنه وحيد، وحيد، وحيد، كما يشعر بأنه يكاد يكون راضيا بهذه الوحدة رغم وجشتها وقسوتها. لكنه فوجئ بمن يقبض على ذراعه فى عنف وشفافة، فارتعد، كأن برميلاً من الماء البارد اندلق فوقه فجأة، فشقق مرتعباً ثم تسعر من فرط الدهول: كيف جرؤت هذه المرأة الصفيقة على الإمساك به هكذا وجره كأنه طفل بائس تقوده أم تعيسه قاسية؟ ها هى ذى تسحبه بغلظة وفظاظة نحو محطة الأتوبيس فى ميدان التحرير بنفس الغلظة والخشونة والسأم تدفعه إلى سلم الأتوبيس المكتظ بحشود من الكتل البشرية المنضغطة فى بعضها كأكوام القمامة برائحة تزكم الأنوف..

تبين من خلال الضباب المتراكم فوق نافوخته أن عليه أن يشبط فى سلم الأتوبيس الموشك على التحرك، وأن عليه أن يبادر بدفع هذه المرأة أولاً. صارت الكرة الأرضية تميل يمنة ويسرة فيما يتحرك الأتوبيس مخترقاً ميدان التحرير إلى شارع رمسيس وسط ضباب رمادى يتخلله ضوء شاحب مذبعث من عواميد متباعدة. ما أن استقام الأتوبيس على الطريق متخذاً سرعته القصوى رغم شدة زحام الشارع حتى بدأ يتبين شيئاً فشيئاً أنه عائد إلى حجرة وضيفة يسكنها فى بيت عتيق فى عزبة المرج خارج حدود القاهرة. ثم دهمه دهول مفاجئ حينما

تبين أن هذه المرأة التي تحمل على صدرها طفلاً مريضاً مرمداً
العينين هي زوجته، وأنه كان في صحبتها بالطفل إلى عيادة
الوحدة الصحية التابعة لشغله. ماتت يده القابضة على القضيب
الحديدى ليحتمل الكتل البشرية التي جثمت فوق صدره بفعل
ميل الأتوبيس أثناء تفاديه السريع لسيارة مقابلة، ثم ما لبث
حتى استعاد توازنه فيما يغوص الأتوبيس في أحشاء عتمة
كالحة.





بذلة الآخر

لم أكن رأيته سوى مرات قليلة جدا، لا تكفى لأن يتعاطف معى إلى هذا الحد. لكننى عزوت رقيقته ودفء عواطفه إلى نبل متأصل فيه، يتسق مع هذه الأناقة المفرطة تشمله من تصفيف الشعر عند الكوافير لابد، إلى الحذاء اللامع ذى الثمن الخرافى الذى أصبحنا نسمع عنه في هذه الأيام من عقد التسعينات. أما البذلة الجديدة من الصوف المعتبر، والقميص الحريرى الشفاف، والصدىرى، ورباط العنق الذى يقال إنه من ماركة تسمى بيير كاودان، والنظارة الريبان الخضراء، وعلبة السجائر الذهبية الملحق بها قداحة، وسجائر الروثمان السخنة، والخاتم الذهبى ذو الفص العقيق الأحمر فى بنصره الأيسر.. أما كل ذلك فمثال للأناقة والفخامة.

المرات القليلة التى قابلته فيها كانت كلها فى مكتب صديقى الحميم الناقد التقدمى سليمان ابو الفتوح، الذى كان إلى وقت قريب جدا يخرج من السجن ليدخل المعتقل، ليعود إلى السجن بعد حين. هو ذو ثقافة عالية إلا أنه يعمل موظفا فى حسابات شركة مصر للتأمين. كعادته دائما لم يعطنى فكرة عن ضيفه، إكتفى بتقديمه لى قائلا: «عادل ابو حشيش!»، وبتقديمى له قائلا: «محمود مصطفى!». بدورى كالعادة أيضا - لم أعن بمعرفة المزيد، ولا بتعرف المزيد، لكننى توقعت أن يكون عادل

ابوحشيش زميلا لصديقى فى تنظيمه اليسارى كانت اكتسبت
أعضاء كثيرين من أبناء البيوتات العريقة والباشوات. إلا أننى
احترمه لأول وهلة، لاتزانه، وسلوكه المتعفف، وشكله المهيب،
ومظهر البذخ الرشيد الواضح، وكلامه المملء بالأفكار النيرة.

فى اللقاء الثانى سلم على بحرارة قائلاً فى بساطة أسرة:
«أهلاً محمود!». وفى اللقاء الثالث تبادل معى حواراً خاطفاً حول
القراءة والأدب هوايته القديمة الحميمية التى هجرها مضطراً إلى
دنيا الأعمال الحرة والمكاسب المجزية إذ أنه اقتنع أن الأدب
فى بلادنا لا يكفل الكفاف لمبدعيه.

فى اللقاء الرابع نزل معى. على استحياء شديد عزمى على
كوب من البيرة فى مقهى ريش التى بقيت له من ذكريات الكتابة
والقراءة. كنا فى عز طوبة والبرد قارص نذل، ثيابى رثة حقيرة
مجرد قميص وسروال أتحرك داخلها بصعوبة، وقد حال لونها،
فضلاً عن الترهل والجعبية.

- «فى صحتك!»

- «فى صحتك!»

كأس فالثانية فالثالثة قال بقليل من الحرج:

- «ألست بردانا؟!»

- «ها أنت ذا ترانى أنتفض من البرد!»

طقت فى عينييه الذكيتين شرارة تكاد تنطق قائلة إنه فى كل

المرات التى التقانى فيها لم أغير هذا القميص وهذا السروال
يعنى ليس عندى غيرهما . لكنه قال:

- «إسمع! أنا أخوك ولا مجال للخجل بيننا!!»

- «طبعاً! أنا فعلاً إتفتح قلبى لك!»

- «إذن فسأشكرك لو قابلتنى فى مثل هذا الوقت غدا لنشرب

كوبين من البيرة! أنت عودك هو نفس عودى! عندى لك بذلة أكثر

من فاخرة لم أضعها على جسدى لأن لونها مكرر عندى على

أذواق أجمل فى نظرى! أنا مصاب بحب الجديد دائماً! وعندى

الكثير والحمد لله فضلة خيرك!! وللعلم هى مستوردة وثمانية جداً

ولا يوجد مثلاً فى محلات مصر! أرجو أن تقبلها منى عربون

المحبة والأخوة!!»

- «لا بأس على الإطلاق! أنا فعلاً محتاج لهدمة تدفئنى فى

هذا الصقيع الجبان!!»

أنتهى الحوار واستمر الشرب. قلت لِنفسي إنه مجرد كلام

ناتج عن نشوة الشرب التى إما أن ترفق الشارب أو تزيده

وحشية حسب ما يعتمل فى داخله. نويت ألا أجيء غدا.

لكننى فى اليوم التالى رأيتنى قد جئت بالفعل. وعندما

ضبطت نفسى متلبساً بالمجئى بررت مجيئى بأن هذا المقهى

مأوانا الدائم فأنا أجيء إليه كل يوم لمجرد المجئ، بموعد أو على

غير موعد، سواء طلبت مشروباً أو لم أطلب، فدائماً أبدا هناك

جالس أنتمى إليه عند الشرب. لدهشتى فوجئت به يدخل المقهى حاملاً حقيبة من البلاستيك كبيرة أنيقة منتفخة. تهلل وجهه حين لمحنى من بعيد، انحاز لترابيزة فى مدخل الباب فجلس إليها مشيراً برأسه أن أجيء. ما كدت أسلم عليه وأجلس حتى سلمنى الحقيبة قائلاً ببسمة خجولة:

- «هدية متواضعة!».

شكرته بعمق فى نصف كلمة عجزت عن إتمامها. بعد زجاجتين من البيرة سلم على وانصرف. بقيت وحدى تتلاطم بى الأفكار: ترى ما هدفه؟ هل يريد أن يجندنى؟ لم يعد مثل هذا الكلام موجوداً بعد أن أصبح كل شىء فى النور. أكون مصاباً بالشذوذ ينوى ابتزازى بشكل ما؟ لا أظن، فشكله وكلامه محترمان للغاية كابن ناس طيبين حقاً.

عدت إلى مسكنى فى لوكاندة العلم المصرى بشارع كلوت بك. فتحت الحقيبة. يا للروعة، بذلة جديدة فاخرة تماماً، رائحة القماش فائحة سخية، قميص حريرى شفاف، رباط عنق ثمين، حذاء أثمن، جورب. هذا لغز، فلو أننى أردت شراء هذا الطاقم لوجب أن أشتغل ثلاثة أعوام كاملة بمرتب كبير فى الحكومة يذهب كله إلى المحل ولا يكفى ثمنًا للبذلة وحدها. العجيب أنى استخسرتها فى جسدى الخشن الذى لم يألّف مثل هذه الفخامة. ركنتها بلفتها حتى أتبين ماذا يهدف هذا الشخص من

وراء نوبة الكرم هذه.

غير أن الشخص اختفى تماما، حتى كاد الشتاء أن ينصرم.
ذهبت لصديقي مرات عديدة دون أن أراه. إنتظرت أن يفتح لى
سيرة صاحبنا فلم يفعل. اضطرت لسؤاله ذات يوم:

- «ألم تعد ترى صديقك هذا المدعو عادل؟!»

- «عادل من؟!»

- «عادل ابوحشيش!»

- «من يكون عادل ابو حشيش هذا؟!»

- «ذلك الولد الأنيق الثرى! الذى أعطا... الذى قدمته لى هنا

فى مكتبك ذات يوم قريب!»

أجهد ذهنه ليتذكره. أخيرا صاح:

- «يا... أه! منذ مدة طويلة لم أراه! هو ليس صديقى

بالمناسبة! هو معرفة أحد زملائى فى هذا المكتب وقد نُقل إلى

بلدته أسوان!! ولكن لماذا تسأل عنه؟!»

- «أبدا! إنه ولد لطيف!!»

فلم يعلق، وبدا أنه لا يعرفه جيدا ولا تعنيه أخباره، فلم

أفاتحه فى سيرته بعد ذلك. وكان البرد قد توغل فى عظامى،

والقميص والسروال أصبحا لا يصلحان حتى كممسحة. ونظر

لى موظف اللوكاندة فى استرابة قائلا:

- «كيف ترضى بهذا العرى فى هذا البرد وعندك مثل هذه

الملابس الثمينة؟! هل تدخرها للزواج؟!»

- «زواج؟! قل إن نفسى مصدودة!!»

- «يا رجل كبر مخك! ستموت من البرد!!»

تركته ودخلت الحمام فاستحمت جيدا. رميت بالقميص والسرwal والحذاء المبرطش فى عربة القمامة المثبتة تحت جدار اللوكاندة. لبست الطاقم كله ونزلت. طالعنى شكلى فى مرآة السلم فكدت أقع مغشيا على من الخضة. لقد تغير شكلى تماما، صرت باشا، لا أقل من نجم سينمائى. رفع موظف اللوكاندة حاجبيه من الدهشة، أطلق صفيرا، صاح بلهجة حرت فى تفسير وفهم معناها:

- «بذلة سقع! من أين أوقعت بها؟ إنها ثمينة تقبل الرهن!»

فلم أعلق. مضيت فى الشارع لا أعرف إلى أين أذهب، فليس فى جيبى مليم واحد. تجنب المرور على المقهى ريش حتى لا يرانى أحد. أول شئ داعب غرورى هو أن أذهب إلى بعض الأماكن التى طالما تمنيت الذهاب إليها على سنجة عشرة من الوجاهة والنظافة مثل جميع روادها، المسرح مثلا، السينما، الندوة الثقافية. حودت على سينما مترو، لا لشئ إلا لأعارس منظرا راقنى كثيرا: أضع يدي فى جيبى السرwal، وأجول بين الأفيشات والصور المعلقة أتفرج عليها. فى أول الجولة فوجئت بيد تربت على مؤخرتى فى حركة بذيئة خفية. إنتفضت فرعا،

تلفت خلفي، رأيت شابا نحيلًا طويل القامة مبتذل الملامح،
غاضت الدماء في وجهه، برعب شديد جعل يربت على كتفي في
اعتذار:

– «أسف! أسف! ظننتك شخصا أعرفه!!»

ثم حياني في خجل وارتباك، واختفى في الزحام.
لعت جمهور السينما كله ومضيت. ذهبت إلي مسرح
الأزبكيه. أثناء مروري على سور الأزبكية سمعت من يهتف من
ورائي: «حازم بك! حازم بك!»، وصوت خطوات يهرول خلفي، ثم
إذا بأحد معلمي بيع الكتب يواجهني مبتسما:

– «حضرتك فين من زمان يا بيه؟ أنا أحضرت مجموعة
المقتطف التي طلبتها مني!!»

– «أنا لم أطلب منك شيئًا!!»

تفرس في ملامحي:

– «حضرتك حازم بك؟!»

– «لا!»

فنظر لي في كثير من الشك، ثم انصرف ممتعضا، دون أن
يجيبني.

دخلت ساحة المسرح القومي متمنيا أن أعثر على أحد من
الممثلين أو موظفي المسرح ممن أعرفهم ليدخلني العرض
بالمجان كما يحدث أحيانا، لكنني لقيت رجلا شديد الاحترام

مهيب الهيئة يقف فى مواجهتى فاتحا أحضانه هاتفا:
- «يا هلا يا هلا! رب صدفة! تحب الليلة أن تأخذ تارك
منى؟! إذن فنخرج من المسرح إلى النادى! أنا الليلة نفسى
مفتوحة للعب وجيبى عمران وتستطيع أن تسترد منى كل ما
أخذته منك على الترابيزة فى آخر مرة! كانت منذ ثلاث أشهر
تقريبا على ما أظن أنك المرة الأولى والأخيرة لم أرك قبلها ولا
بعدها لكنى أشهد أنك حريف لكنك سئ الحظ! من يدري؟ لعل
الحظ يخدمك الليلة خصوصا أن بنتا جديدة محل البنت التى
نحسنتك ليلتها!!»

ابتسمت قائلا إنه غلطان، وإننى لم ألعب القمار فى حياتى،
ولم أتردد على أى ناد باستثناء نادى القصة. فبدأت عليه الصدمة
وراح يتأمل ثيابى فى تشكك، ثم تأسف وأعطانى ظهره. وقفت
بحزاء مدخل الكواليس لألتقط أى ممثل داخل، فلاحظت أن رجلا
ذا وجه مرح يتفرس فى ملامحى بتركيز شديد لافت للنظر.
أخيرا اقترب منى فى شىء من الود المشوب بالحدر:

- «مساء الخير! حضرتك تعرف الأستاذ عادل البدرى؟!»

ترددت قليلا:

- «أعرف عادل فقط أما البدرى فلا!»

- «ألست قريبا له إذن؟ صديق مثلا؟!»

- «لا مع الأسف!»

قال كأنه يعتذر عن تطفله وعن إنكارى:

- «إنه ولد جدع! رجل بمعنى الكلمة! لتيك عرفته إذن لكسبت صديقاً يعتمد عليه وقت الشدة! منذ مدة طويلة لم أراه! لكن! الله يخلق من الشبه أربعين! أقصد أشباه البذلات لا أشباه الرجال!!»

أغاظنى، حولت بصرى عنه فى عدم اهتمام، فتركنى وانصرف. ثم انفتح باب الدخول فتوافدت عليه الجموع حتى فرغت الساحة إلا منى. فجأة صار المكان فقراً موحشاً. ثم سمعت دقات خشبة المسرح فى الداخل تتوالى كالنذير، فقفلت عائداً إلى شارع سليمان فى وسط المدينة. سئمت، تعبت، شعرت بالجوع، بضرورة أن أمر على المقهى لأستريح وهناك أمل كبير أن أجد من يطلب لي كوب شاى أبتلغ به ذهبت إلى قهوة زهرة البستان.

فى المقهى قوبلت بزفة هائلة. أنكرنى الجميع. جاء الحرسون فطلب الجميع لأنفسهم ما عداى، فرمقنى الجرسون بنظرة غير مريحة تجرعتها على مضض. داهمتنى كابة قاتلة، شعرت إلى ذلك أن البذلة تكتفىنى، أخشى أن أرتكن بكوعى على الترابيزة الملوثة، أبتعد كلما اهتزت الأكواب على الترابيزة. بعد برهة وجيزة دخل القاص النوبى إبراهيم، فتجههم الوجه ممسكا بياكو دخان معسل. جلس دون أن ينتبه لى، ثم لما اعتدل فى جلسته

وقع بصره على، فراح يتفحصنى مضيقا ما بين حاجبيه فى تركيز، فلما تبيننى قام وسلم على فى حرارة، ذلك أنه لم يكن رآنى منذ حوالى أسبوعين. ثم لاحظت أنه يتابعنى بنظرات قلقة شغوفة توحى بأنه يتحين الفرصة للإنفراد بى. صدق حدسى، فما كاد آخر واحد ينصرف حتى انتقل هو إلى جوارى. أخذت أدبر للإيقاع به كى يطلب لى كوب شاي على حسابه، لكننى فوجئت به يميل على أذنى هامسا فى تهدج ينضح مسكنة وإرهاقا ومودة:

- «شف لى معك جنيهاات سلف! لى قصة منشورة فى مجلة إبداع منذ ثلاثة أعداد وسوف أقبض مكافأتها بعد يومين! الكشف تم توقيعه بالفعل!!»

لم أجد كلمة واحدة أقولها، فضحكت، لذت بالصمت. رأيت أن الأنصراف قد وجب، والليل قد صهل فى الشوارع. سلمت على إبراهيم ومشيت بلا وجهة محددة.

فى باب اللوق شعرت بخطواط تهول خلفى، ويد تقبض على كتفى بقسوة. إلتفت مذعورا: رجل قوى بالغ الضخامة موفور الصحة ينتفض من اللهات والغضب، يتطاير الشرر الأحمر من عينيه:

- «قفشتك يا نصاب يا حرامى! أنا تفعل معى هكذا؟!

جزائى أن وثقت فىك وأمنتك! ليلتك سوداء بإذن الله!!»

– «حضرتك غلطان! هناك سوء تفاهم!»

– «أربع سنوات وأنا أبحث عنك! ضاعت ملامحك من ذاكرتى ولم يبق إلا هذه البذلة التى أرشدتك إلى محلها واشتريناها معا! كان ذلك فى مدينة الرياض فى الشتاء الماضى! أوهمتنى أنك رجل أعمال! فسلمتك أربعمئة دولار كى توصلهما لأخى فى القاهرة فلم تفعل!! أريد الآن أربعمئة دولار فوراً!!»

– «يا عم! يا حضرة! والله ما هو أنا! ثم إنى لم أخرج من مصر طول عمري ولم أعرف شكل مدينة الرياض هذه! ما اسم الشخص الذى تقصده؟!»

– «إسمه كامل! ربما شامل! الورقة عندى فى البيت على كل حال فيها الاسم والعنوان الذى قلته لى! وطبعاً قلت لى أى اسم وأى عنوان! معك بطاقة شخصية؟!»

– «لا مع الأسف! ضاعت ولكنى أحفظ بياناتها!!»

– «ها! ضاعت! سأفتشك! كل ما أجده معك سأأخذه!»

ونفذ التفتيش فى الحال، فاستسلمت له. وضع يديه فى كل جيوبى، شد فتحة الصدر ونظر فى الماركة الأجنبية الملصقة فوق الجيب الداخلى للسترة ثم صاح:

– «هى نفس البذلة! أنا الذى انتقيتها واخترت لونها وعندى أختها! بالأمانة لم تكن مستريحاً لهذا اللون وأنا أقنعك بشياكته!!»

ثم شوح بذراعيه فى يأس وقد ضوعف شكه:
- «لا بطاقة شخصية ولا ورقة واحدة تثبت شخصيتك! لا
نقود ولا أى شىء فى جيبك؟ أنت إذن محتال! فمن يلبس مثل
هذه البذلة وهذا الحذاء لابد أن يكون جيبه عمران! على كل حال
البذلة وحدها تساوى الأربعمئة دولار على حالتها هذه! أنت
نصاب كما توقعت فلا تتمكن من أكل من هذا الكلام!!»
- «يا حضرة! أحلف لك على المصحف الشريف ما هو أنا!
ولست أعرف شيئاً عن الموضوع الذى تتكلم فيه!!»
- «إذن فقل هذا فى قسم الشرطة!!»

جذبني من ذراعى بعنف حتى كدت أنكفى على وجهى. فى
الطريق إلى قسم الشرطة فكرت أن أعترف له بأن أحدهم قد
عطف على حالى فأهدانى هذا الطاقم كله، لكننى أحجمت عن
ذلك فى الحال، وإلا فأنا مطالب بأن أدله على هذا الشخص فى
حين أن هذا الشخص أختفى ولا أعرف عنه أى شىء على
الإطلاق.

فى قسم الشرطة حكى الرجل الحكاية بالتفصيل من أولها
إلى آخرها، وأكد أن الورقة المكتوبة بخطى باسمى وعنوانى
وإقرارى بأتى سأوصل الأربعمئة دولار لأخيه فى القاهرة
موجودة عنده وسيأتى بها. قال ضابط المباحث:

- «معك بطاقة شخصية؟»

تلعثمت. قال الرجل:

- «ليس معه أى شئ! كان يبحث عن صيد فى أول الليل
عندما أمسكت به وهو يبدأ سرحته!!»

رمقنى الضابط بنظرة هازأة شملتنى من الرأس إلى
القدمين، وانتظر برهة وجيزة. ويبدو أنه رأى دموع العجز فى
عينى، فهز رأسه فى ابتسامة صفراء تفيض سخرية واحتقارا،
ثم صاح فى المخبر الواقف بجواره فى لهجة أمرة صارمة:
- «ضعه فى الحجز! أنا متأكد أن وراءه بلاوى متلثلة!»

جذبنى المخبر من ذراعى. نزلنا إلى الطابق الأرضى. فتح
باب الحجز الحديدى الكئيب، دفع بى فى جوف الظلام ثم أغلق
الباب بالمفتاح. صرت أتحسس الظلام بيدي وقدمى، ولم يكن
يشغل ذهنى لحظتها - من عجب - سوى أننى منذ ساعات قليلة
كنت أشفق على البذلة الفخيمة من جسدى ومن وسخ الترابيزة
فى المقهى، والآن سوف أضطر للنوم فوق أرض قذرة عارية.

تم التحميل من
مكتبى



حصاد البرؤس

يبدأ الموسم عادة بأن يضمحل الركود فى القرية شيئاً فشيئاً وعلى مدى أيام طويلة مفعمة بالدفء والعذوبة والترقب، تستيقظ فى الأخلية والأبدان كل الآمال والأمنيات المؤجلة ربما من سنوات بعيدة حيث يتجدد حضورها فى كل موسم: فغداً أو بعد غد تتم دخلة البنت «رتيبة» بنت الجيران على خطيبها «عنتر» من شرقى البلد.. وتتم خطوبة «فايقه» بنت الصرفانى للولد محمود ابن عمها، وفى حفل الخطوبة يُختن أخوها الصغير.. ويتم بناء الجدران المائلة فى الدور.. ويذهب عوضين - العيان بكفيه كما يسمونه فى نواحيننا - إلى حكيم البندر ويقول له بكل جرأة: «معاك من جنيه لمائة لتزِيل عني تضخم الطحال!».. ويرتدى الشبان - بعد لآى - جلابيب من الصوف والكشمير تشبها بالكبار.. وترتفع مصاريف حسن طالب الإبتدائية الوحيد فى عائلتنا وتُشترى له بدلة جديدة وربما طربوش وحذاء جديدين..

كل ذلك يستيقظ فى كل الأفئدة، كبيرة كانت أو صغيرة، حتى أولئك الذين لم تكن لهم فى الأصل أمنيات، تنبت لهم آمال مفاجئة يخلقها مناخ الأمنيات الأخذ فى الشيوخ على مدى بضعة شهور قبل أن تنبت بذرة القطن الخضراء فى أراضى بلدتنا المترامية الحدود. فالجميع طوال العام لم يكونوا يسمعون

سوى كلمة واحدة كجواب على أى طلب يطلبونه: «أما نجمع القطن وعليك خيرا!». وكل أمنية وشيكة التحقيق لا يقف فى زورها سوى كلمة: «أما نبيع!»، وحينئذ يشتد خفق القلوب، إذ كثيرا ما يحدث الجمع ثم البيع دون أن يتحقق شىء كثير مما هاجت به الأفئدة، ذلك أن الجنيهاات التى يقبضونها عند البيع لا تكاد تبلغ الدار حتى تكون فقدت فى مشتريات حدثت منذ عام مضى..

مع ذلك تنتعش الحياة فى بلدتنا انتعاشا كبيرا. تزول الخشونة والقضاظة من سلوك البقالين والخياطين وتجار الحبوب والجزمجية. يتحول الجميع فجأة إلى رجال تملوهم الشهامة ويفيض منهم الود، حتى ليثق فيك - فجأة - ناس ماكانوا من قبل يمنحونك هذا الشرف أبدا. يصدقك البائع إن قلت له - وأنت تشتري باكو دخان شكك على الحساب - إنك سوف تحاسبه بعد يوم السوق المقبل. وإذا ميلت على الحاج عمران تاجر الحبوب والأقطان وطلبت منه مبلغا على سبيل القرض الحسن فإنك تكون واثقا أنه سيعطيك دون تخفيض أو مماحكة. ليس عبيطا، هو يعرف أنك بارع فى جمع القطن أو حتى سرقة على أى مستوى، وأنت سوف لن تبيع فى نهاية المطاف إلا له هو، فبما أنه الغول الذى يبتلع قطن الجميع بالتسليف الفوري المستمر، فأنت تجد من الحصافة البيع له حتى لا يكون هناك

وسيط يأخذ منك فرق السعر كمكسب له. يسرح بأموال سباع
وذئاب وثعالب ينتشرون فى الأسواق فى القرى المجاورة، وعلى
شطان المصارف ومفارق الطرق، لاصطياد العائدين من
الحقول، والراغبين فى التخلص مما معهم سرا وبدون
شوشرة..

الجميع يشتري ود الجميع على نطاق واسع جدا، يصبح
الصياغ والبلطجية سعرا وأى سعر، فمن ورائهم تجى صفقات
مدهشة، ويستفيد من يستعين بهم أيما فائدة..

يصبح منظر شارعنا جميلا غاية الجمال. من بعد صلاة
العصر مباشرة يزدهى الشارع، يمتلى بالألوان المدهشة، التى
تتفرع كلها من - وتصب فى لون القطن، حيث تحولت معظم
المصاطب الممتدة أمام الدور إلى مفارش من الحصير الملون
أو الأجولة المفرودة، والأرض أمامها مفروشة لمسافات طويلة
تتقارب تتلاحم بحدود رش المصاطب المجاورة. على كل
مصطبة يجلس ولد ومعه معاون له أو أكثر من إخوته أو رفاقه أو
نويه. قد يبدو صبيا صغيرا، ولكن تفرج عليه بعد برهة، لا
تندهش إذا دب يده فى جيب الصديرى كالرجال ليخرج منه
منديلا محلويا أو كيسا مطويا على حوالى ثلاثة كيلو جرامات
نقود سائبة من الفضة والبرونز والورق. ليس المهم بفلوس من
يتاجر هذا الصبى أو ذاك، لكن المهم أن المهرجان طيب وجميل

بل وساحر..

إن هي إلا دقائق وتبدأ أسراب الصبايا تتوافد تتواشب مثنى مثنى ثلاثاً ثلاثاً أربعاً أربعاً. كلهن معروفات للجميع، فالكل يعرف الكل، جيل الشيوخ لم بجيل الصبيان إلى حد المزاح معا كأنهم أنداد، يحلو للشيخ أن يوهم الصبيان بأنهم أنداده حتى يظفر من ورائهم بطائل من الأخبار أو الحكاوى الطريفة، أو يظفروا منه بشئ من التجربة أو حتى بسخرية يستعيدونها فيما بعد باشتياق..

على واحد من هذه المفارش يجلس «عبد الحسيب» يثقب بعينه سربا من ضبايا قادمات من حوادية العكاشيه يدبر لاصطيادهم بالحيلة المناسبة. هو يعرف أن الجميع فى هذه الأيام يبيع، وليس من أحد يسأل: من أين جئ بهذا القطن؟ فالمهم أن الذى سيبيع موجود وبكثرة. من جمع قطنا من أرضه التى يملكها أو يستأجرها أو يعمل أجيرا فيها فإنه يتعجل ذوق طعم الفلوس بمجرد وصول القطن من الحقل إلى الدار، يريد أن يشتري شيئا حلوا يأكله، لا بأس من أن يبيع ملء قفة أو أكثر يصطبر بثمنها ريثما يجمع الأرض جمعتين أو ثلاثة ليبيع على مهلة البيع الأكبر. وثمة أنفار لا يملكون أرضا لكنهم يبيعون أيضا، فمالى أنا لكى أسأله من أين جئت بهذا القطن يا ولد؟ مالى أنا؟ أليس من المحتمل أن يكون منوبا عن أحد فى البيع

فحسب؟ ربما، فمن أدري أى رجل من رجال البلدة أن زوجه
انتهزت فرصة خروجه وأرسلت الولد فلان التملى أو البنت فلانة
الخدمة وقالت له أولها: «روح بيع الشوية القطن دول فى السر
وتعال!»..

إذن فأنا جاهز. هكذا يعلن «عبد الحسيب» أو أى صاحب
فرش، أيصح أن تفلت منه الفريسة وهو أول من يقابلها عند
حودتها من الناصية؟ إن هذا ما لا يصح من عبد الحسيب أبداً،
إنه عبد الحسيب الشيخ والأجر على الله. ها هو ذا يصيح بلهجة
ثعلبية سافرة يبسم لها ويلعب حاجبيه الجميلين فتتراقص كل
ملامح وجهه الأبيض المستطيل تحت طاقة مشغولة من الصوف
السمنى اللون، وتبرز أسنانه المتسقة الكبيرة بعض الشئ
المفلوجة من أمام فلجا يصنع بين شفثيه صليبا وهميا لطيفا:
- «إتفضلوا! أهلا أهلا! تعالى يا سميرة! تعالى
يا سمورة!»

هكذا يشرع فى استقبال سميرة ومن معها من الصبايا،
معطيا إياها فوق ما تستحق من التدليع والحفاوة والود، هو
الذى إن قابلها بعد ذلك أو قبل ذلك فلربما زغدها بكوعه فى غيظ
أو سب لها ديك الكفرة. سميرة نفسها - شأن من هن على
شاكلتها - تعرف عبد الحسيب الشيخ حق المعرفة وتعرف أنه
يتملقها ويكاد يذوب فى هواها، ومع ذلك لا تقدر على إخفاء

الزهو والإختيال، فإذا هى تتأود فى عياقة يحسدها عليها الناس
المبسوطون، كأنما العياقة خلقت لبناتهم فحسب. ولذلك فسرعان
ما يلوون شفاههم فى قرف، وفى همس ينعنونها بأقبح الأوصاف
وأشنع الرذائل فيما هم يتابعونها من تحت إلى تحت: بنت الكلب
ترفع ذراعيها لسند القفة على رأسها فيستطيل خصرها ويرتفع
صدرها أخذا أهبطه الكاملة للمبارزة متحديا فروسية الفرسان،
تتوسط منطقة الخصر دائرة السر، أو السرة، كالعجين الخمران
كالقمر كالرغيف كعين أغلقت على سر غامض وقدر لها أن تفتن
البصر.. اللعنة عليك وعلى من رباك. تستدير لتنزل القفة عن
رأسها فتستقر كل العيون على العجيزة، تكوينها البديع يتحدى
ذلك الثوب المتسع رغم احتشامة الفقر فيه وهى فتاة.. اللعنة
عليك وعلى من رباك، تقولها حتى النساء الواقفات حوالىها فى
انتظار دورهن ابتغاء البيع، كأن الذى رباها مسؤول عن خرطها
هذه الخرطة الساحرة وهذا التكوين الإلهى البديع..

- «يا خلق! فلتحتشموا! ضعوا فى عيونكم

حصوة ملح!!»

بهذا القول الهامس اللعوب يبخلق عبد الحسيب الشيخ فيمن
يلمح فى عينيه كذا أو كذا. يقوله حتى على سبيل الغزل بدوره، ثم
يستطرد معلقا كأنما ليعتذر بلباقة، شأن فصحاء المهجد
ومنادر الانتخابات:

– «انتم هكذا تسبون الله شخصا والعياذ بالله!
أليست هذه السنيورة خلقة الله؟! كاذبا تطلبون
احتشاما أكثر من هذا؟! بحق جاء النبي؟! لكن!
دعك منهم يا حلوة! أنزلى القفة! أودعيها
لى أنا! نعم هكذا!»

وبأسرع من البرق تكون يداه قد أنشبتا الأظافر فى كومة
القطن وقلبته من القاع إلى أعلى مروراً بالقلب وما حوله، عدة
مرات. هو من النظرة الأولى عرف نوع القطن وأدرك أنه من
أجود نوع طويل التيلة، إذن فإنه من أرض فلان الفلانى وهذه
البنت خادمتهم أو جارتهم أو صديقة أو قريبة. إنما هو يقلب
ليعرف، فحسب، هل كل ما تحتويه القفة من نفس النوع أم
اختلف بقاعه السكرتو بالكونك بالسكاليريدس؟ أما فقد أطمأن
إلى أن القفة كلها من نفس النوع فإن البنت إذن أمينة، وقد
جاءت بالقطن من دار فلان إلى هنا مباشرة، يدرك أنها تبعا
لذلك سوف ترجع لأهل الدار بما قبضته كله، حينئذ عليه أن
يعطيها سعرا يضمن أنها لن تعارضه، لكنه ينزل مقدما عن هذا
السعر ست أو سبع درجات كل درجة تنزل نصف قرش فى
الرطل. عند ذاك يقترب من الفتاة هامسا بكثير من الود والدفء
فى أذنيها:

– «صلى على البننى يا بنت الناس!»

تقول باسمه في طرف شالها الذي استعارته لابد من إحدى
بنات الدار صاحبة القطن:
- «ألف صلا عليه!»

يخافت من صوته كأنما سيذيع سرا خطيرا:
- «عشان خاطر عيونك انت بس! أنا أعرف
البئر وغطاه! كلنا شقيانين في سبيل لقمة
العيش! سأعطيك خمسة ونصف!»

تعرف أنها ستتقاضى، تبعا لعرضه، خمسة قروش ونصف
عن كل رطل مما في هذه القفة. وسواء كان ذلك كثيرا أم قليلا
فإنها لابد أن تتشكك، ولا بد أن تشيح بوجهها بعيدا في حيرة
وإن احتفظت بابتسامتها إبقاء لحبل الفصال. يعاجلها عبد
الحسيب:

- «هيه! أزن؟!»

ترد بشئ من الخجل:

- «الوزن ملحوق عليه! المهم كلام البيع والشراء!»

يشوح بذراعه قائلا كأنما في حسم نهائي:

- «وافقت بسته؟ زن يا ولدا!»

ويشير إلى الولد الممسك بالميزان القبانى. تسرع هى فى
قليل من الجرأة:

- «حاسب حاسب! قال بسته قال! حدش

شافك النهار ده؟!»

تهم برفع القفة عن الأرض، تهبط عينه إلى كومة القطن في
ذعر وتحسر، لكنه سرعان ما يعتقل نظرتَه في لا مبالاة
مصطنعة، يمعن في اللامبالاة أمعانا في نصب الشراك للفريسة،
حتى إذا أيقنت الفريسة أنه غير راغب فيها أقبلت عليه بمحض
إرادتها واختيارها. وهكذا يتطوع عبد الحسيب الشيخ بمساعدة
الفتاة في رفع القفة إلى رأسها بكل أريحية وهو في أعماقة يود
لو قلبها على مفرشه غير أنه وهو يحاذي القفة من رأسها يعلقها
بين يديه لبرهة، هامسا في أذنها:

– «وافقت بستَه ونصف؟!»

فإن لمح ترددا ينذر بموافقة أسرع بدلق القفة فوق المفرش.
وأما إن جُوبه بصدٍّ من الملامح متين فإنه يريح القفة على
رأسها في شهامة، فيما يهمس في أذنيها:

– «أقول لك؟ خذي السبعة وأمرى لله!

أنا صعبان على لفك بالشيلة الثقيلة! ولا

داعى للـف بدون نتيجة!»

فإن هي ردعته برمش ساج غير مبال، واستدارت ماضية

فإنه يلاحقها بصوته الطروب:

– «خذي سبعة ونصف!»

فإذا ما استمرت في مضيتها أرسل صوته في كعبها:

- «إذن فثمانية!»

فإذا لم تتوقف وتستدير عائدة صاح كالمغلوب على أمره:

- «ثمانية ونصف!»

وإذ يتأكد أنها ستستمر في مضيتها فإنه يودعها بصيحة
الذي انهزم بمزاحه:

- «تعالى فخذى التسعة!»

ثم بسرعة متتالية:

- «تسعة ونصف! عشرة!»

وحينئذ يكون قد اطمأن إلى أنه قد ربط دماغها ربطا محكما،
وأن الصفقة عائدة إليه لا محالة، فالسعر الذي ألقى به وراءها
لن تبلغه الفتاة بأي حال من الأحوال، إنه مجرد ربط للدماغ
فحسب، ستظل الفتاة متمسكة به على الأقل حين لا تجد أزيد
منه، وهنا سوف يتعين عليها أن تنهى لفها حول البلدة في شارع
داير الناحية وربما في حواريتها في طلب السعر الذي سمعته من
عبد الحسيب. إلى أن تعود في النهاية إلى عبد الحسيب في
منتصف المساء قائلة بقليل من الخجل وكثير من إظهار الود
المفاجئ:

- «خد يا عم! إوزن!»

ثم تشفع خضوعها قائلة، وهي تعرف أنه يعرف أنها تكذب:

- «والله جاعنى نفس السعر! فقلت إنك أولى

من الغريب! فأنت ابن جهتنا مهما كان!

حينئذ تفاجأ بأنها أمام شخص آخر تماما غير عبد الحسيب الذي تركته في مقتبل الأصيل، شخص أنهكه الفصال والمناهدة والمناكفة والتقليب والمساعدة في الإنزال والمعاونة في إعادة الرفع أو في الدلق على المفرش، يتخلل ذلك استخراج لكيس النقود وعدّ أعداد منها وتقديمها، وعراك حول دقة الميزان وبقايا الفكة. يكون مع ذلك قد راها وتأكّد من عودتها دون أن ينظرها بعينه. إنما هو يعتمد إهمالها طويلا حتى تكاد بنفسها تدلق القفة على مفرشه وتمضى. بكل استمتاع هادئ ينهى وقفة مجموعة من الصبيان لا يتعدى ما مع الواحد منهم عن ملء منديل محلاوى. هنا يحق لها أن تحتج على طول وقفاتها قائلة:

- «مشيني بقي يا عبد الحسيب!»

لحظتئذ ينظر إليها كأنه يراها لأول مرة، وكأنه لم يعرفها من قبل ولم يسبق له التودد إليها منذ قليل يقول:

- «أيوه.. نعم يا ست الكل! يلزم خدمة؟!»

لو كانت هي صاحبة القطن حقا فإنها لابد أن ترفع القفة في الحال وتمضى غاضبة لتنقذ البقية الباقية من ماء وجهها، وهذا ما يعرفه عبد الحسيب جيدا، ويعرف أيضا أنها مجرد مندوبة أنيط بها بيع هذه الأمانة الأصلية، لهذا يثق أنها سوف تحتل كل ألعبيه تفاديا للرجوع بالصفقة إلى أصحابها فتثير الخيبة

والنكد وربما أُنذرت بفضيحة..

تتذرع الفتاة بابتسامتها المرتعشة وهى تهيب به أن يخلصها:

- «يا خميه بلا دلح امال!»

بوجه مشدود الملامح ينحنى على القفة من جديد فيعيد فحصها أكثر مما سبق. وبلهجة حاسمة - فيما يدفع بالقفة نحوها كأنه يأمرها بطريقة خفية أن تحملها وتمضى، يقول:

- «بثمانية!»

ثم لا يزيد مليما واحدا، أو حرفا واحدا، ليقينه التام أن هذا السعر هو أعلى سعر عرض عليها خلال تجوالها فى دابر الناحية، أما التجار الفاشون فى الحوارى الجانبية فإنها لا تذهب إليهم لأنهم يشترون قطنا معيناً من طائفة معينة، القطن الذى هو عبارة عن نتف منزوعة من أنياب اللوزات الناشفة، أو التى لم تنضج تماما، مما يجعل القطن مشوبا بظلال خضراء كعصيدة أجبيت بالعفن، ومثل هذا القطن لا يجلبه سوى الغلمان الذين يسرحون فى الغيطان لالتقاط البقايا المتناثرة على شطآن الطرقات. وأمثال هؤلاء المشترين يندر أن تقف أمامهم صبية بقفة تمتلئ بقطن صحيح نظيف..

فى الغالب تهم الفتاة برفع القفة من جديد بحركة متطامنة، طمعا فى أن يزيد عبد الحسيب شيئا أى شىء. لكنها حين تنظر

فى وجهه وتراه قد انصرف عنها نهائيا تجد نفسها مضطرة إلى ترك القفة وإزاحتها قائلة: «هات!». فبسرعة متقنة يدنق عبد الحسيب القفة على مفرشه الذى اتسع فى سويحات قليلة فصار يضم ثلاث كومات أو أكثر، كل كومة تضم نوعا مختلفا من القطن. يشد كيس النقود من جيب الصديرى ويعدها نقودها، ثم يتجه إلى الجوال المخصص لجلسته حيث يكرر نفس الحركة التى يفعلها كلما جلس: يمسك براد الشاى من الصينية ويصب منه فى الكوب، ويتضح له فى كل مرة أن البراد فارغ، فلا يتذكر من الذى شربه ومتى شربه..

كلما أقبل المساء تهيأت له الكلوبات الساهرة المتناثرة، وتتلاها مساحات الضوء على أرض البلدة التى لا تشهد الضوء المبهر إلا فى مناسبات قليلة كهذه. يكون سوق البيع والشراء قد وصل إلى أوجه وتنوعت الزبائن، وتباينت الأشكال والأسعار، حيث قد عاد الرجال من الحقول وصلوا العشاء وفكروا فى قرشين لزوم البغدة والسفر إلى مدينة دسوق لدخول «السلما» وأكل الطعمية الساخنة التى لا يمكن أن تكون شبيهة بأى الفلافل فى بلدتنا رغم أنها الخالق الناطق هى..

تخرج كميات لا بأس بها من قفف القطن من مخازن العائلات سرا، أو بمعرفة الشبان الكبار الذين يشعرون بالاستحقاق نظرا للجهود الخارقة التى بذلوها فى سبيل

ابيضاض هذه اللوزات من بذر وعزيق وري ونقاوة لطع وجمع،
أو بمعرفة النساء المواسات ضد ضرائهن..

نحرم على أنفسنا اللعب فى الأجران رغم أننا فى ليالى
اللعب نتمنى حزمة ضوء واحدة من هذه الحزم المبهجة
المنسابة الممتدة من كل مكان فى كل مكان، حتى لتبدو القرية
فى عتمة الليل كرسومات من الضوء بين كتل سوداء كثيفة..

يصعب علينا مغادرة منظر الضوء والإنصراف عنه إلى
اللعب، فنقضى الوقت نمرح فى شغف بالضوء. يجذبنا
المهرجان وهو كبير وحافل. تخلو الأجران كلها من الأولاد،
لتراهم أمام مصاطب ومفارش الشراء يبيعون شيئاً لهم
أولاًقاربهم، أو يتطوعون بالمعاونة فى مساعدة المشتري وفض
المشاكل وإحباط المعارك التى لابد أن تنشأ بسبب الفصال
والأخذ والرد والمناكفة وضيق الخلق..

ما أفكه منظرنا نحن الذين لا ناقة لنا فى الموضوع ولا
جمل بدافع الفرح العام وحده ترانا ككذاب الزفة، يبدو علينا
الفرح أكثر من أصحاب الفرح، يبدو علينا الحرص الشديد على
كل شئ، كأن القطن والأرض أرضنا والأموال ستدخل جيوبنا.
نمر على الفيطان فى العصارى بحجة الفسحة على شاطئ
الترعة، وفى الواقع لا نكون منجذبين إلا بمنظر القطن يكسو
مساحات شاسعة من الأراضى السمرء كخيمة من النجوم

المنتفشة كبساط من القطيفة البيضاء، تتخلله مجموعات من الأنفار محنية على الخطوط، تنبعج كروشهم وجنوبهم، فلقد تحولت جلابيبهم إلى «عبيات»، إذ يرفع النفر ثوبه إلى ما فوق ركبتيه ويتحزم عليه فيصنع في الثوب فراغا متسعا كالكيس، وينحني فوق شجرة القطن بيدين مدربتين تدريبا هائلا، حيث تروح اليدان تحومان حول الشجرة منقضة بأطراف الأصابع فوق اللوز المنتفخ السايح لتقطفه بسرعة فائقة، صاعدة هابطة متخللة أفرع الحطب الجاف، حتى إذا امتلأت القبضات شيعت حفنات القطن في «العبية» من فتحة طوق الجلاباب. وإذا انتهى الخط يستدير الأنفار عائدين في خطوط عكسية مجاوزة، وتكون «العبيات» قد امتلأت وجعبيت، فيتجهون جميعا في طابور إلى المفرش، وهو عبارة عن حصير كبير أو جولات من الخيش المفرد ينبسط على الأرض، حيث يقف النفر فوقه ويفك حزامه، فينهمر القطن من تحت ثوبه مكونا دائرة حول ساقيه، ثم ينفض نفسه جيدا فوق المفرش، ويمضي ليلحق بخطه الجديد، ليتولى أنفار آخرون - مأجورين أو من أصحاب الأرض - تعبأة ذلك في أكياس وغرارات تنقلها الجمال والحمير إلى الدور في البلدة لتُفرغ على المصاطب في القاعات الداخلية. تتحول جميع طرقات الحقول وشوارع البلدة إلى خلية تشغى بالجمال والحمير العائدة أو السارحة، ومنتف القطن تتبعثر على الوجوه وتعلق

بالثياب وتختلط بتراب الطرقات والشوارع فى كل مكان. أما دور العائلات الكبيرة فإن الحركة فيها لا تهدأ، فإن دخلت دهليز دار من هذه الدور وجدت عددا كبيرا من الأكياس الكبيرة واقفة، يطل من داخل كل كيس رجل فتى أمسك بأطراف الكيس بين يديه وراح يكبس القطن بقدميه، وصبايا الدار يزودونه بالقفف المملوءة بالقطن يدلقنه بين سيقان الرجال فى الأكياس وهم يكبسون ويكبسون. تظل قامات الرجال تقترب من السقف، إلى أن تصير الأكياس جامدة صلبة، تنتصب فى مدخل الدار كالأبراج العالية. فيخيطنونها بالمسلات، ليبدأ فرح الأطفال بعد ذلك مباشرة، إذ يشرعون فى تسلق هذه الأكياس بواسطة أمهاتهم أو آبائهم أو بعضهم البعض فى صراخ وزئيط وضجيج طوال ما يقرب من شهر. إلى أن يفاجأوا ذات يوم برجل يلبس الجلباب الصوفى والعباءة والطربوش، وخلفه مجموعة رجال فى شكل مهيب، لعله القفاص أو الحاج بركات صاحب المحلج الشهير فى دمنهور أو لعله أحمد افندى خليفة السمسار، مهمة السرح بأدمغة الفلاحين حتى يعجلوا بالبيع قبل انخفاض الأسعار وسفر الخواجات وقبل أن تحدث فى الأمور أمور تستدعى الندم على التراخى فى البيع، الفلاحون أمكر منه، فالواحد منهم لابد أن يؤجل البيع حتى يجمع أرضه جمعه ثانية وربما ثالثة بعد أن يتفتح اللوز السفلى البعيد عن الشمس،

وحتى يتمكن من خلط الجمعة الثانية والثالثة بالجمعة الأولى ليختفى الرديء في أعطاف الجيد وتكثر كمية الجيد. هو يعرف أن السعر لابد أن يأخذ في الإرتفاع لأن نسبة كبيرة من الفلاحين تمسك عن البيع الفوري، وحينئذ يخطط بعضهم للبيع في السر خوف الحسد وخشية نشر التشجيع على البيع حتى لا ينخفض السعر. وبعضهم يبيع كمية في أول الموسم وكمية أخرى في نهايته. والسمسار لا يكف عن الرواح والمجى. فإذا ما جاء التاجر ليشتري فإنه يبرز من جيبه خنجرا معقوفا، يغرّ به الكيس في أى بقعة يختارها، فيخرج سن الخنجر بنتف من القطن ما أن يراها حتى يعرف نوع القطن وجودته من ردايته. وهكذا يفعل بكل الأكياس في أكثر من بقعة في الكيس الواحد، وشبيه بهذا الخنجر القلم الحديدى الذى يمسكه تاجر الحبوب، وهو قلم طويل مجوف بسن مدببه، يفرزه في الجوال ويخرجه فإذا بجوفه قد امتلأ بالحبوب، يفرغها في كفه ويفحصها. القفاص هو أبرع تجار الأقطان جميعا، إذ هو يعرف حقيقة نوع القطن بمجرد تحسسه للكيس بأصبعه، ومع ذلك يجرى عليه الإختبارات الكثيرة. وهو رجل قصير القامة ضخم الجثة بلغد يلتف حول عنقه الضخم، وعلى أنفه منظار طبى سميك تلمع من خلف عدساته عيون صقرية النظرات. إذا ما أتفق على السعر ودفع العربون فإن رجلا من أتباعه ممسك بكوز من الصفيح

مملوء بصبغة خضراء وفرشاة، يغمسها في الصبغة ويكتب على الأكياس إسم القفاص ووزن الكيس ورقمة، لتجئ عرباته الكميون في اليوم التالي لنقل الأكياس ودفع بقية الثمن..

ليس لأمثالنا قطن نبيعه، فلسنا بفلاحين ولسنا بأنفار وإن كان بعضنا ينحدر من أصول فلاحية صرفة، والبعض الآخر ينحدر من أصول تملية خالصة، ولكن انقلابا خطيرا كان قد حدث لصالحنا فوحد بيننا وبين أهل الأصول كافة في البلدة، ذلك هو انفتاح المدارس لأبناء كافة وانزواء المصاريف تحت أعقاب الأبواب. فبعد أن كانت العائلات الغنية تسعى إلى المدرسة بواسطة أولادهم، جرى الخفراء في البلاد وفي حقولها يجلبوننا قسرا وبالقوة إلى المدرسة، فلما أن انخرطنا في سلك التعليم انفتحت أمامنا مغاليق لا حصر لها. كم بذلنا من جهود جبارة، أنا ولفيف من رفاق الحارة والحقل والعرق باليومية في لهيب الشمس، في مقاومة الآم الإنسلاخ من شخصية «النفر» للدخول نهائيا في شخصية «التلميذ»..

شخصية «النفر» رافقت شخصية «التلميذ» سنوات بحكم ضرورة البقاء أحياء نرزق. وهذا القطن الذي بدأت تتدفق بشائره الآن أكواما من الذهب الأبيض كالحليب الرائب، شقيننا نحن في زراعته وإنمائه، من حرث إلى بذر إلى ري إلى عزيق إلى نقاوة لطع شهورا طويلة كالحة في لون الملح واللفت

والصهد، وتفرحت جلودنا فى جمعه من اطرافه الناشفة المدينة واليومية ستة قروش عمياء لا ترى أبعد من كوبة أرز يأكلها إخوتى فى عشوة، والواحد منا دبر لأبيه كل خمسة أيام كيلة قمح. ذلك ما نفعله دائما فى الاجازات الصيفية فيما نحن تلاميذ فى مدرسة البلدة الإلزامية التى انقلب وضعها بعد ثورة يوليو وأصبحت إبتدائية يحصل منها التلميذ على الشهادة الإبتدائية فى نهاية السنة السادسة من التحاقه بها، فتساوينا بذلك مع أقراننا الذين التحقوا بالمدارس الإبتدائية فى البندر، مع فارق مهم أنهم كانوا يدرسون اللغة الأنجليزية أما نحن فلم نكن نعرف عنها شيئا..

صارت لنا فى التلمذة أقدمية وفى النفرية مثلها. ما إن علمنا أننا فى نهاية هذا العام سنحصل على الشهادة الإبتدائية من بلدتنا، وأننا سنؤدى الإمتحان بأرقام جلوس أمام لجنة فى بندر دسوق حتى انتفخت أوداجنا، حق للواحد منا أن يحترم نفسه ويكف عن الأشتغال أجيرا باليومية فى الحقول، وعليه أن يدبر رزقه من أى باب آخر يكفيه - ولو قليلا - مؤنة المهانة تحت رحمة الخولة من أبناء الساقطات. من حسن حظنا جاء الإصلاح الزراعى ونحن فى مرحلة الخروج النهائى من شخصية النفر لندخل دخولا لا رجعة فيه فى شخصية التلميذ، إذ تأكد المستقبل أمامنا حلوا كاسحا، فالتعليم قد أصبح بالمجان،

والعمل المحترم قد أصبح متاحا، أصبح لمعرفتك القراءة والكتابة نفعا ماديا تجنى ثمرته، لقد أتيح لطالب في الإبتدائية مثل «طلبه الجرف» أن يتوظف ملاحظا للأنفار لدى الإصلاح الزراعى فى موسم نقاوة الدودة، مثله مثل «شكرى افندى» الذى كان معاونا للأنفار فى «وسية أفندينا، فتهياً لطلبه الجرف أن يركب حمارا، وأن يمضى بين الحقول بجلبابه الزفير ذى الياقة والأساور والسُفرة، ويضع على رأسه قبعة كقبعة الناظر خفاجه، وفوق ذلك يفرد شمسية كشمسية المفتش العام، ويتأبط دفترا مثنيا ينطبع إبطه عليه بختامه العرق. عليه أن يتوقف لدى كل فرقة من المقاومة، فكلها تابعة للإصلاح الزراعى وتحت إشرافه، ويترجل. عندئذ يتوقف الأنفار على رعوس خطوطهم، فيقيدهم فى دفتر بالإسم مشفوعا بالنظر، ليتأكد لديه أن كل صاحب فدان قطن قد أرسل نفرا. هذا فى الصباح الباكر، وعليه أن يعاود الكرة عند الأصيل، ليتأكد أن كل الأنفار لازالوا موجودين، وأن أحدا منهم لم ينتهز فرصة تقييده لينصرف برشوة الخولى أو تدليس من الباشخولى. ولا بد أن يقيد فى دفتره كل مخالفة، ليتولى الإصلاح الزراعى انزال العقاب..

معظمنا بات يطمح فى وظيفة كهذه تعينه على مصاريف السكن والإقامة فى البندر. على الواحد منا، فقط، أن يكمل السنة السادسة فى المدرسة ليكون قد حصل على الشهادة

الإبتدائية، بعدها يحق له أن يلتحق بمرحلة تعليمية أخرى خارج
البلدة فى إحدى المدن القريبة..

وهكذا صار علينا أن نتفنن ونتخايل فى الحصول على
القرش من سبب شريف. ولقد خدمتنا الظروف أيضا إذ أن ثورة
يوليو، التى أصبحنا نتطق اسمها بفصاحة ودقة وفخامة قد
نشرت فى أجواء البلاد شعارات جميلة براقية كان يحلو لنا أن
ننطقها فى بلاغة وطلاقة كأنها الدليل القاطع الحق على صدق
انتمائنا للمدرسة: العمل واجب، العمل حق، العمل شرف. على
هذا الضوء استأنف بعضنا العمل نفرا أجيرا كما كان ولكن
فى فترة الإجازة الصيفية فحسب. أما البعض الآخر فأنصرف
يعمل بائعا فى محلات البقالة الكبيرة، أو صبيا لدى الخياطين أو
النجارين أو البنائين أو مقاولى الأنفار..

كان علينا أن نسلح وجوهنا بقدر عظيم من «الكلاحة» وغلظة
القفا. نسمع الهمس من وراعا كوخز الإبر المسمومة اللاهبة:
«عامللى تلميذا! يروحش يشوف ابوه الجربوع؟!

ما شافش امه اللى من غير لباس؟! قلع البيسه وركب
السيسه! يا خى دهده!!»، فعلى كتف الواحد منا أن تكون صلبة
ملساء كى تنزلق فوقها سنان الإبر. وإذا نكون سائرين حاملين
المخلات تحت أباطنا مليئة بكتب المدرسة وكراريسها، بسمتنا
الفلاحى الخشن وربما القذر، يحاول الواحد منا الدخول شيئا

فشيئاً وبشق النفس فى سيماء التلاميذ المسمومة لعله يبدو
كالتلاميذ الحقيقيين الذين دخلوا المدرسة عن عمد وسبق إصرار
من آبائهم، أيقظتهم أمهاتهم ساهرات مبكرات عارفات، غسلن
وجوه أبنائهن بالليفة والصابونة وألبسنهم نظيف الثياب وزودنهم
بحلو الطعام والفاكهة، وحيث يوصلهم إلى المدرسة رجال،
وينتظرهم فى الدار رجال يسألونهم فى اهتمام مبتهج: «خدتوا
إيه النهارده فى المدرسة؟!». هم يذهبون إلى المدرسة باحتفال
يليق بالمدرسة. أما نحن فقد طلبتنا المدرسة فجئناها خاضعين
يسحبوننا الخفراء من أطواق جلابينا حفاة صدئين، بعضنا
مبهور راغب متطلع، والبعض الآخر سأمنا كاره نادم على يومية
كان سيقبضها من حقل الوسية ستة قروش عظيمة، فى مقابل
أن يحمل المخلاة كل يوم؛ ورايح فين؟ رايح المدرسة! وجاى
منين؟ جاى من المدرسة! يا فرحتى. معظمنا - والحق يقال -
كان من المبهورين الراغبين المتطلعين، ولهذا وجب عليهم تهيئة
الوجه لكل قذيفة ساخرة يطلقها واحد من زملائنا السابقين فى
شغل الأنفار، إذا ما التقوا بنا فجأة فى الشارع ونحن ذاهبون
إلى المدرسة فيما هم متوجهون إلى ملم الأنفار..

مجتمع المدرسة كان يرفضنا، ومجتمع الأنفار يهزأ بنا علناً
بحكم الدلال والوصال القديم والعشم، وآباء التلاميذ الأصلاء
يسلقون أقفيتنا، وحتى العقلاء من أهل القرية كانوا يبدون

الإعجاب بأن نكون من بين التلاميذ ولكن إعجابهم يجي دائما
مبطنا بعدم الإقتناع بأننا سننفع، لأن الطبع يغلب التطبع، ولكن
كله على الله ومين عارف؟!... وكم بذلنا من جهود جبارة في
احتمال بذاءات الأولاد الذين هم في عرف أبناء مدارس بحق
أى أبناء ناس من غير الأنفار والأجراء، ناس قدرين. وفي
الواقع كان شكلنا يبعث النفور حقا، ولكن ما حيلتنا في ذلك؟

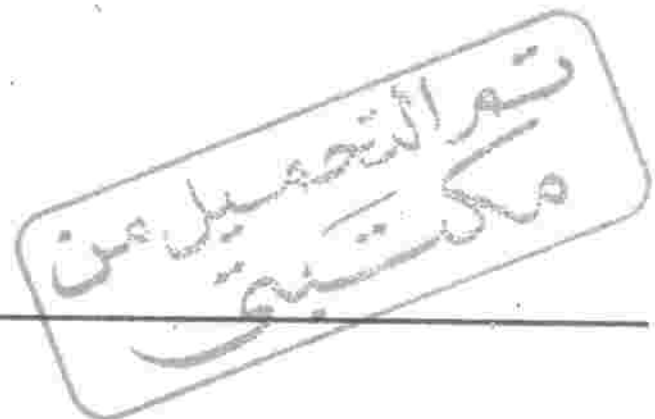
لم يكن على الواحد منا سوى أن يوقظ نفسه بنفسه في مطلع
الصبح، ليطس وجهه بحفنة ماء، ويقضم كسرة، ويلفع المخلاة،
وينفس الثوب الذي كان نائما به منحشرا بين إخوته، وينفس
الطاقية الغبراء، تتصاعد منه روائح حشرات عديدة انفقعت
وسالت دماؤها - دماؤه - بين حنايا الثوب وثنيات الخياطة
مختلطة برائحة عرق وعفونة، وبأقدام مفلطحة غليظة ربما لا
تخضع لمقاييس الأحذية المباعة، ناهيك عن منظر المخلاة التي
هى فى الأصل - فى معظمها - بقية من ساق سروال قديم، تعج
بالكتب والكراريس كيفما اتفق، ودواة حبر أزرق نملأها كل يوم
من قنينة المدرسة لتندلق فوق الكتب والكراريس تنيلها بنيلة،
وتصبغ المخلاة..

بكل ذلك ينطلق الواحد منا إلى المدرسة مهرولا بهمة نفر
يخشى أن تتجاوزه الأنفار، ويبقظة وانتباه نفر يخشى عصا
الخولى ويقيم لها ألف حساب، وبصبر وصلابة نفر يدرك أنه فى

نهاية اليوم سيكافأ بستة قروش عظيمة النفع، حتى ولو تأجل قبضتها إلى مالا نهاية، وكل ذلك - مع ذلك - كان شيئاً يبعث علي الفخر الغامض ذلك الغموض المفعم بالآمال العراض..

غير أننا كنا نشعر بنعصة في الحلق حين يتأكد لنا أن جمهرة المدرسين والنظار والمفتشين ينحازون إلى الأولاد الأكثر نظافة حتى ولو كانوا أغبياء حمقى. ذلك أن هؤلاء الأولاد لم يكونوا مصدراً لأي مشاكل، فإذا طلب من كل تلميذ قرشاً لأمر من الأمور التي لم نكن نحن نفهمها، جاعوا به جميعاً في اليوم التالي، وإذا طلب منهم كتاب أو كراس كانوا أسرع من يجيء به. ونبقى نحن في كل حصه مصدراً للكلام والفضائح والشتائم المفزعة زغلول والعسلى والبصلى وابن الحشاش ولدان معي جمعنا الفقر والعوز لكنه لم يوحدنا على شيء نفعله معاً، إنما وحد بيننا التوبيخ في ساحة الفصل بين كافة الزملاء ونشأت بيننا علاقة عجيبة تقضى - دونما اتفاق مسبق - أن يقول الواحد منا للآخر عن أي سبيل جديد يكتشفه يمكن أن يجيء من وراءه خير، وهكذا نشأت فكرة الاستفادة من موسم القطن.. هي في الأصل فكرة العسلى، الوحيد الذي لم تغنيه مسألة الفرق بين التلميذ والنفر، إذ يسعى في الحقول بقية النهار باحثاً عن رزقه تحت أقدام الفلاحين الأعيان وفي أعطاف الأرض الغنية المعطاة، فيعود كل مساء وقد حمل بين يديه

شيئا يأكله أو يبيعه، وإن لم يجد شيئا فليجتث النجيل الأخضر
من على شواطئ القنيان فيجمع حزما كبيره يبيعه في مدخل
البلدة للحاج محمود ابو بكر الذي يملك منحلا كبير ومزرعة
للأرناب والطيور في مقابل بضعة ملاليم أو أكلة عسل وشكله
مثل رأس الفجلة رفيع من أعلى غليظ من أسفل رأسه كرأس
الهدد لكن تخرج منه الأعاجيب أنجبه أبوه بعد بلوغه سن
السبعين من امرأة ضاله من قبائل الفجر فسارت مهمتها
العناية به في كهولته والجرى على رزقه بالخدمة في بيوت الناس
وقد تبعه زغلول في بداية الأمر واندفعت في تقيله فتبعتهما أنا
الآخر أصبحنا نلتقى كل صباح فنتسلل إلى الحقول التي تم
جمع قطنها مرتين فباتت حطبا جافا نجول بين خطوطها نلتقط
النتف التي بقيت في اللوزات، نترصد لوزات كانت في أسفل
الشجيرات لم ينتبه إليها الجامعون ونعود آخر النهار مشوهي
الأيدي والسيقان بخرايش اللوزات الجافة وفي يد كل منا
منديل محلاوى به حفنة من نتف القطن تملأ قبضتين وكل أملنا
أن نجتمع في نهاية الموسم ما يباع لقاء بريزة أو بريزتين.



المحتويات

الموضوع	الصفحة
١ - رسالة الحائط الرطيب	٩
٢ - الدسّاس	٤٣
٣ - ضرب الودع	٥٧
٤ - قلب الشجرة	٩٣
٥ - فتح المجاديل ٣	١٠٤
٦ - عدل المسامير	١٣٩
٧ - سمك مشوى	١٤٩
٨ - الشفق	١٦٧
٩ - بذلة الآخر	١٧٥
١٠ - حصاد البؤس	١٩١